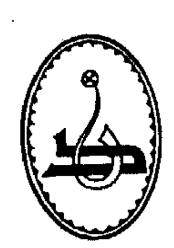


تاريخ فلسطين القديم

بسم الله الرحمن الرحيم

ظفر الاسلام خان

تاريخ فلسطين القديم

منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي

١٢٢٠ ق.م - ١٣٥٩ م

دار النفائس

Ancient History of Palestine

1220 BC – 1359 CE

From the First Jewish Invasion to the Last Crusade

by

Zafarul Islam Khan

First Edition 1973
Second Edition 1979
Third Edition 1981

Publishers

Dar Al-Nafaes
P.O. Box 6347
Beirut, Lebanon

الطبعة الأولى : ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م
الطبعة الثانية : ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م
الطبعة الثالثة : ١٠٤١ هـ — ١٩٨١ م

بيروت : ص ب ٦٣٤٧ ـ هاتف ٢٥٨٧٣٨ـ٣٠٢٥٣٨ ـ برقيًا : دانفايسكو

«ضلّوا كلّهم فرذلوا جميعاً، وليس من يعمل الصلاح ولا واحد، حناجرهم قبور مفتحة، وبألسنتهم قد غشّوا، وسمّ الضلال تحت شفاههم، وأفواههم مملوءة لعنة ومرارة، وأرجلهم مسارِعة الى سفك الدماء، وفي مسالكهم حطم ومشقة، ولم يعرفوا سبيل السلام، وليست مخافة الله أمام أعينهم.»

رومية ٣ : ١٣ — ١٨

●

«.. وفي جميع أرجاسك وفواحشك لم تذكري أيام صباك ... وإذا كنتِ لم تشبعي : زنيتِ مع بني آشور ولم تشبعي، فلذلك أقضي عليك بما يقضى على الفاسقات وسافكات الدماء، وأجعلك قتيل حنق وغيرة ..»

يهوه للشعب المختار
بلسان حزقيال : ١٦

مقدمة الناشر

لم يختر اليهود فلسطين «لمعناها التوراتي والديني بالنسبة اليهم، ولا لأن مياه البحر الميت تعطي بفعل التبخر ما قيمته ثلاثة آلاف مليار دولار من المعادن وأشباه المعادن . وليس أيضاً لأن مخزون أرض فلسطين من البترول يعادل عشرين مرة مخزون الامريكتين مجتمعتين ، بل لأن فلسطين هي ملتقى طرق اوربا وآسيا وافريقيا ، ولأن فلسطين تشكل بالواقع نقطة الارتكاز الحقيقية لكل قوى العالم ، ولأنها المركز الستراتيجي العسكري للسيطرة على العالم » هذا الكلام للدكتور ناحوم غولدمان ، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي من محاضرة له في مدينة مونتريال في كندا عام ١٩٤٧ (١) . فلقد اختارت الصهيونية فلسطين لتقيم فيها اسرائيل لأسباب متعددة: اقتصادية وعسكرية وسياسية.. ولعل الدينية آخرها . ثم عملت بعد ذلك على إيجاد المبررات والحجج لتقنع الرأي العام الدولي بمساعدتها في تحقيق بغيتها . وكان من جملة حجج الصهيونية الادعاء بحق تاريخي مزعوم في الأرض المقدسة ، فلسطين .

لكن الوقائع تؤكد أنه ليس لليهود (ساميين وغير ساميين)

---

(١) راجع « التوراة تاريخها وغاياتها » ترجمة الاستاذ سهيل ديب — دار النفائس .

أي حق في فلسطين . كذلك تشير الحقائق إلى أن الصهيونيين الذين قدموا إلى فلسطين واغتصبوا أرض العرب ليسوا ساميين أصلاً . ولا توجد أية رابطة نسبية تربطهم بإسرائيل (يعقوب) الذي يطلقون اسمه على دولتهم .

فاليهود الساميون أصلهم مختلف فيه،من المؤرخين من يجعلهم ساميين وينسبهم إلى ابراهيم الذي خرج مع قبيلته من مدينة أور في جنوبي العراق لسبب مختلف فيه .. وتوجهوا إلى حران[1] شمالي سوريا . ومن هناك هاجر على رأس أتباعه باتجاه الجنوب (حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م) وأقام فترة في أرض كنعان (فلسطين اليوم) حيث رزق بابنه إسحاق الذي أنجب بدوره يعقوب . ومن أبناء يعقوب يوسف الذي توصل إلى مركز وزير في مصر في ظروف خاصة شرحها القرآن الكريم بشيء من التفصيل ... وحدثت مجاعة في أرض الكنعانيين فانتقل بنو إسرائيل إلى مصر ونزلوا ضيوفاً على أهلها وتمتعوا فيها بمعاملة حسنة إكراماً ليوسف .. واستمر لجوؤهم في مصر إلى زمن موسى الذي خرج بهم باتجاه جنوبي سوريا حيث تاهوا في

---

(١) تقع مدينة حران اليوم داخل الحدود التركية شمالي سوريا ، وقد كانت منذ الألف الثالث قبل الميلاد تحتل مكانة دينية بارزة في شمالي بلاد الرافدين ، وكانت مركزاً لعبادة الإله القمر (سن) ، وقد تجمع فيها الصابئة الذين نزحوا من العراق عند الفتح الاسلامي. قال عنها ياقوت الحموي: « بينها وبين الرقة يومان وهي على طريق الموصل والشام والروم » .

الصحراء (صحراء النقب) ... وهذه الرواية عن أصل اليهود هي التي يميل معظم علمـــاء اليهود إلى الأخذ بها ، بينما يذهب مؤرخون آخرون إلى أن اليهود خليط متنوع من النـــاس جمعهم الحرمان وسوء السلوك ، فهم كالصعاليك في العصر الجاهلي ، أو العيارين والشطار في العصر العباسي . كانوا يغيرون على المدن الكنعانية فيعملون بهـا سلباً ونهباً .. ومع الأيام اندمج بعضهم مع بعض وشكلوا جمـــاعة من الناس لهم لغة خاصة هي خليط من اللغات القديمة لغات الآشوريين والكنعانيين والفينيقيين[1] .

هـــذا هو أصل اليهود الساميين . أمـا الصهيونيون الذين يحكمون فلسطين اليوم ويشكلون أكثرية شعب « إسرائيل» فهم كما تقرر المصادر الصهيونية ذاتها بنسبة ٨٢ ٪ اشكنازيون أي يهود غير ساميين[2] .

من أين أتى هؤلاء ؟ وكيف أصبحوا يهوداً ؟ لقـد توافد في القرن الميلادي الأول مجموعات من العروق التركية – المغولية والفنلاندية إلى اوربا قادمة من آسيا عبر الأراضي الواقعة شمالي بحر قزوين ، واستقر قسم منهم في أقصى الشرق من اوربا حيث شكلوا مملكة قوية عرفت باسم « مملكة الخزر » حتى ان بحر

---

(١) راجع كتب الاستاذ أديب العامري وحديثه الى مجلة « الحوادث » عدد ٨١٤ سنة ١٩٧٢ ، و«العرب واليهود في التاريخ» للدكتور أحمد سوسة.

(٢) راجع « الموسوعة اليهودية The Jewish Encyclopedia » و« موسوعة بيرز » و « كتاب أحجار على رقعة الشطرنج » لوليام كاي كار .

قزوين كان يسمى بحر الخزر . وكانت عاصمتهم مدينة استراخان حالياً . وكان الخزر وثنيين ، متساهلين دينياً [1] لكن أخلاقهم جعلتهم يفضلون الدين اليهودي ، بشكله الذي آل اليه بعد ما حرّفته أيدي الحاخامات ، على الدين المسيحي أو الاسلامي فاعتنقوا اليهودية في معظمهم أو كلهم ، أما كيف انتقلت اليهم الديانة اليهودية ودخلوا فيها ؟ بالأحرى كيف قبلوا يهوداً ؟ فهذا ما لا يوجد فيه رأي تاريخي مقنع [2] .

المهم ان دولة الخزر عاشت ما يقارب الخمسمائة سنة ، وسيطرت على بلاد واسعة ، وبلغت دولتهم ذروة قوتها في القرن التاسع الميلادي ، حتى تمكن السلاف الذين انحدروا من الشمال بعد حروب طويلة من القضاء عليهم سنة ٩٦٥ م . وذابوا في الكيان الروسي ، لكنهم تقوقعوا في مجتمعات صغيرة حاقدة داخل المجتمع الروسي الكبير ، وكانوا وراء معظم عمليات الشغب والثورة والتدمير ... في روسيا ، وهذا هو سبب وجود أعداد كبيرة من اليهود في المجتمع الروسي . كذلك فقد انتشر جزء كبير منهم في معظم دول اوربا الشرقية منها خاصة . هؤلاء

---

(١) راجع موسوعة « فانك اند واغنل » Funk and Wagnalls .

(٢) اليهود لا يعترفون بيهودية إنسان ما لم يكن من أم يهودية . وقد اعترض الحاخام الأكبر في حيفا على زواج أحد ضباط المظلات من غاليا بن غوريون (حفيدة بن غوريون) لأنها من أم مسيحية ، والحجة التي قدمها الحاخام « ليس هناك أي إثبات على أنها يهودية » (جريدة لوموند — ٢٤ شباط ١٩٦٨) .

اليهود هم الذين يتوافدون إلى فلسطين اليوم ويدّعون فيها حقاً تاريخياً ويجعلون من أنفسهم أحفـــاداً لابراهيم ويعقوب ، الذين لم يكونوا في يوم من الأيام حكام أرض كنعان العربية .

ولقد تناول الباحث الهندي الاستاذ ظفر الاسلام خان في كتابه هذا «تاريخ فلسطين القديم» دور اليهود (الساميين) في تاريخ فلسطين وكيف انهم كانوا إمـا عابري سبيل أو لاجئين أو مغتصبين لأجزاء من أرض كنعان ولفترة بسيطة ، وانهم لم يسيطروا على كامل الأرض التي يطلق عليها اليوم اسم فلسطين في تاريخهم القديم كله . ويبين وهن حججهم ويدحض دعواهم وكذبهم مما لا مجال للإطالة في شرحه ، فالكتاب يتولى تفصيله .

وإنه ليسرّ « **دار النفائس** » أن تنشر هـــذا البحث القيّم الشيّق في الوقت ذاته مساهمة منها في تعميم معرفة هذه الحقائق ، آملة أن يتعمق المؤرخون العرب في استكمال البحث وأن تقوم الحكومات العربية والمؤسسات القادرة بتبني ترجمة هذه الحقائق ونشرها على الرأي العام العالمي . والله الموفق .

أ . ر . عرموش

مقدمة المؤلف

إن قضية ما في العالم، وفي التاريخ، لم تستند إلى الأباطيل والأكاذيب مثلما استندت اليها القضية الصهيونية. ولم تستفد قضية ما من جهل الناس الحقائقَ بقدر ما استفادت الحركةُ الصهيونية. ولم تكن الدعاية اليهودية ناجحة فيما وراء البحار فحسب، بل كانت سلعة رائجة في قلب العالم الاسلامي، وفي مؤسسات تجارتنا الفكرية المؤممّة.

إننا نعيش في فراغ رهيب، مهما بدا للناظرين ازدحامُ الأسواق بالغادين والرائحين. إن المسؤولين عن النكبات تلو النكبات تشغلهم الاهتمامات التافهة الحقيرة. إننا نفتح ونغزو ونصنع ونعمل ... بالشعارات. إننا نحاسب المسؤولين بما يقولون وليس بما يفعلون. إن مكتباتنا تفيض بكتب، قليلُها نافع وأقلُّها باقٍ. أين نحن من سباق العالم وتطوره الرهيب؟ إلى متى سنستمر في «تسجيل المواقف»؟

إن الذين حملوا أمانة القلم يتحملون الوزر الأكبر عما نحن فيه. هؤلاء الكتّاب – الذين قدّموا لنا أقل قدر من الحقائق وأكبر قدر من الآراء القاطعة – كانت أكثريتهم الكبرى تقوم بتنفيس الشعور العميق بالغبْن الذي ألحقته بنا الصهيونية، أو تبرّر الحماقات التي ارتكبت باسم القضية مُنذ بدأت إلى الآن.

فهل لمؤرخينا أن يوجّهوا أنظارهم إلى المشكلات الحيّة التي

تواجهنا اليوم ؟ إلامَ سيظلون منغمسين في القضايا الأكاديمية ، وفي خـــدمة الأهداف القصيرة المدى لبعض أولي الأمر . إن الأقلام التي تسخّر نفسها لخدمة أشخاص .. وعهود .. ، أليس الأجدر بها أن تتحوّل لخدمة القضايا المشتركة المصيرية لمواجهة التحدي والمسؤولية التاريخية على جيلنا . إن القلم أمانة . وعن الأمانات ستـُسألون .

●

لقـد كان التاريخ الفلسطيني مجالاً خصباً للدعاية الصهيونية المتبجحة بأن اليهود إنما يعودون إلى أرضهم القديمة . إن هـذا الكذب الصريح لا يؤيده أي منطق تاريخي ، أو سياسي ، أو اجتماعي . لقد تظاهر جهابذة الاستعمار الانجليزي بتصديقه لأنهم رأوا في الصهيونية وسيلةً لتمكين أنفسهم من فلسطين ، والآن ترى دولة العدوان الأمريكية أن نتـــاج العصابات الصهيونية المسلحة ذلك ، وسيلةٌ لتمكين نفسها من الشرق الأوسط .

ولعل هــــذا الجهد المتواضع يفلح في إلقاء بعض الضوء على الماضي اليهودي في فلسطين القـديمة ، ذلك الماضي الهزيل القلِق المماثل للحاضر الصهيوني .

والله ولي التوفيق ، وهو المستعان .

ظفر الاسلام خان

القاهرة — ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٢

الفصلُ الأوّل

تسمية فلسطين وحدودها

« وماذا أنتن لي : يا صور ، ويا صيدون ،
ويا جميع دائرة فلستيا ؟ »

سفر يوئيل ، الاصحاح ٣ : ٤

إن الأرض الواقعة جنوبي سورية وشرقي البحر الأبيض المتوسط هي أرض صَنَعت التاريخ وصُنِع فيها التاريخ. ويمكن أن يقال عن هذه الأرض ما قاله شيشرو عن أثينا :

« حيثما نضع أقدامنا فنحن إنما نمشي على التاريخ ! »

بسبب الموقع الجغرافي ولكثرة الاتصال بالتاريخ السياسي والروحي للعالم تعرضت هذه الأرض لغزوات كثيرة ، سلمية وغير سلمية .

وقد أطلقت شعوب كثيرة على هذه الأرض أسماء كثيرة .

ولعل أقدم أسماء هذه الأرض[1] هما إسما : خارو Kharu (للجزء الجنوبي) ورتينو Retenu (للجزء الشمالي) اللذين أطلقها قدماء المصريين .

---

(١) سوف نشير اليها من الآن فصاعداً بإسم « فلسطين » .

ثم سميت البلاد بـ « أرض كنعان » أو « كنعان » ؛ وتوجد أول إشارة إلى هـــذه التسمية في حفريات تل العمارنة [1] التي يرجع عصرها إلى خمسة عشر قرناً قبل الميـلاد . والإسم الذي تذكره هذه الحفريات هو « كيناهي » أو « كيناهنا » Kinahi, Kinahna ، وأصله « كنعان » Kana'an ، وأشارت هـــذه الحفريات بهذا الإسم إلى البلاد الواقعة غربي نهر الاردن بمـا فيها سوريا . و « كنعان » هو الإسم الذي تذكر به التوراة هذه البلاد ، هـذا رغم أن اليهود بعد غزوهم فلسطين كانوا قد بدأوا يسمون هـــذه البلاد في لغتهم بـ « أرض إسرائيل » Eretz Yisrae'l وسموا شرقي الاردن بإسم « عبر الاردن » Eber Hayarden [2] ، أي أنهم اعتبروا شرقي الاردن جزءاً منفصلاً عن « إرِتزْ إسرائيل» . وكنعان ، كما جاء في كتاب «العدد»[3] يحدّهـا البحر غرباً ونهر الاردن وبحيرة طبرية شرقاً ، وخط يمضي شمالاً من تلك البحيرة .

وحدود كنعان الشمالية والجنوبيـة كانت أكبر من حدود بلاد الإسرائيليين التي هي « من دان إلى بئر سبـع » From Dan to Beersheba [4] ، ويؤكد ذلك ما جاء في أمكنة مختلفة من

---

(١) UJE, Vol. VIII, p. 347.

(٢) Ibid.

(٣) Num. XXXIV. 6, 11.

(٤) JE, Art: Palestine

التوراة ، كسفر القضاة وغيره [1] . وكانت كنعان تشمل سهول فلستيا [2] وكذلك فينيقية على ساحل البلاد [3] ، وكانت حدود كنعان الجنوبية تمتـــد حتى عين قادش ومن هناك حتى « نهر مصر » [4] ، أي حتى وادي العريش الحالي . وفي الشمال أيضاً كانت حدود كنعان أكثر اتساعاً من حدود أرض إسرائيل [5] ، فكانت حدود أرض إسرائيل تنتهي عند دان أي عند تل القاضي الواقع على السفح الجنوبي بجبل حرمون Mount Hermon ، بينما كنعان كانت تضم كل لبنـــان [6] (فينيقية قديماً) ، وكانت حدود كنعان تنتهي — حسب التوراة — على ساحل البحر عند مدخل حماه [7] . والإسرائيليون القدماء « لم يحتلوا هذه البلاد بكاملها أبداً ! » ، كما أن « الآراء تختلف حول مـــدى الأرض الموعودة للإسرائيليين القدماء » [8] .

---

(١) Judges XX. I ; II Sam XXIV. 2, 15.

(٢) سوف نشير الى هـــذا الاسم بالتاء دون الطاء المستخدمة في كلمة « فلسطين » وكذلك سوف نطلق كلمة الفلستينيين على أهالي الساحل الفلسطيني القدماء ، وذلك لدرء الالتباس بين كلمتي فلسطينيين وفلسطين ، اللتين همـــا كلمتان جديدتان معربتان .

(٣) JE, op. cit.

(٤) Ezek XI. vii. 19; Num XXXIV. 7.

(٥) JE, op. cit.

(٦) Josh XIII 5; Judges III. 3.

(٧) Num XXXIV. 7 seq; Ezek XIVVII. 15 - 20.

(٨) JE, op. cit.

أمـــا إسم « بالستين » Palestine (الذي عرّبه العرب فنطقوه « فِلَسْطين ») فهو مشتق من إسم الشعب الذي كان يسكن السهول الشمالية والجنوبيـــة من فلسطين ، ويسمى «الفلستينيون» . ولعل أول إشارة إلى هـذا هو الاسم بلاستو Plastu الذي أطلقـــه الملك الأشوري أداد نيراري الرابع Adadnirari IV حين أشار بذلك الاسم إلى ساحل فلستيا Philistia — أي ساحل الشام الجنوبي [1] الذي كان يسكنه الفلستينيون [2] . ولأول مرة أُطلق اسم « بالستين » على البلاد حين صكّ الامبراطور فسباسيان Vespasian هـذا الاسم على نقوده [3] التي أصدرها عقب قهر الثورة اليهودية سنة ٧٠ م ، وبذلك أعطاها الصفة الرسمية لأول مرة ، رغم أن هذه الكلمة ظلت تطلق في « العهد القديم » على بلاد البلشتيم Pelishtim أو الفلستينيين [4]. وذلك بمعنى المنطقة الساحلية جنوبي فينيقية. وكان الإغريق هم الذين بدؤوا في إطلاق هـذا الاسم على الجزء

---

(١) UJE, Vol. VIII, p. 347.

جـــاء في التوراة « لا تفرحي يا جميع فلستيا ! » أشعيا ، الأصحاح ١٤ : ٣٩ .

وكذلك « ... تأخذ الدعوة سكان فلستيم... » الخروج ، الأصحاح ١٥ : ١٤ — ١٥ .

(٢) Luke, Handbook of Palestine, p. 8.

(٣) JE. op. cit.

(٤) Ibid.

الداخلي من البلاد ، أيضاً [١] ، بعد أن كان مخصصاً للسهول الساحلية . وليس غريباً أن يطلق شعب أجنبي اسم الساحل على داخل البلاد . وحتى في عهد هيرودوتس « أبي التاريخ » (٤٨٤ — ٤٢٥ م) والذين تبعوه من الكتّاب الكلاسيكيين مثل بطليموس وبليني Pliny (٢٣ — ٧٩ م) كانت هذه الكلمة (بالستين) تطلق على كل من الجزئين الساحلي والداخلي من البلاد حتى الصحراء العربية [٢] . وقد كتب هيرودوتس قبل ميلاد المسيح بأربعة قرون : « ... يعرف هذا الجزء من سورية بفلسطين » [٣] . ومع مرور الأيام حلّ اسم « بالستين » محل الاسم الشامل : « سورية الفلسطينية » . وبهذا المعنى استخدم كلمة (بالستين) كل من المؤرخ اليهودي جوزيفوس (٣٧ — ٥٩ م ؟) وفيلو Philo (٣٠ ق م — ٤٠ م) . وتوجد هذه الكلمة في العبرية باسم بلشيت Pelesheth [٤] . وفي حقيقة الأمر ، فإن اليونانيين هم الذين اختاروا هذا الاسم وطفقوا يطلقونه على كل أجزاء فلسطين وانتقل منهم هذا الاسم إلى الرومان والبيزنطيين [٥] . وكان الرومان قد قسموا فلسطين

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid.

(٣) جفريز ، « فلسطين : إليكم الحقيقة » ص ٣٣ .

(٤) UJE, op. cit.

(٥) Bentwich, Mandate Memoirs, p. 63.

في آخر سنيهم إلى ثلاثة أقسام [١] :

١ – بالستين الأولى Palaestina Prima

(يطلق على يهودية)

٢ – بالستين الثانية Palaestina Secunda

(يطلق على الجليل)

٣ – بالستين الثالثة Palaestina Tertia

(يطلق على الأجزاء الباقية في جنوب البلاد)

وعندما بدأ التقويم الميلادي أصبح هـــذا الاسم يطلق على المنطقة القـائمة بين بحيرة الحولة ونهر مصر [٢] ، وابتـداءً من المؤرخ المسيحي جيروم Jerome أصبح اسم بالستين يطلق على البلاد بصفة عامة ، وتبعه في ذلك المؤلفون اليهود [٣] .

وفي العبرية الحديثة تسمى البلاد باسم بالستيناه **Palestinah** مضافاً اليه بين هلالين كلمة (إريتز إسرائيل) [٤] . ولكن الأدب العبري لم يتبنَّ هـــذا الاسم أبداً ، مفضلاً اسم إريتز إسرائيل [٥] .

ومن « بالستين » انبثقت كلمة « فلسطين » العربية ، وقـد

---

(١) Luke, pp. 8 - 9.

(٢) Ibid, p. 8.

(٣) JE, op. cit.

(٤) UJE, op. cit.

(٥) Bentwich, op. cit. p. 63.

أطلق العرب هذا الاسم على الولاية الرومانية المسماة « بالستين الاولى » التي كانت تضم – يهودية وسامارية مع قيسارية (أو قيصرية) كعاصمة [1] . ولا بد أن العرب كانوا قد عرّبوا هـذا الإسم في عهد مبكر قبل الإسلام ، وذلك لأن هذا الإسم أطلق بوضوح على منطقة وسط البلاد ، في معاهدتي عمر بن الخطاب مع أهل إيلياء واللد ، اللتين سيأتي ذكرهما . هـذا رغم أن العرب كانوا ولا يزالون ، يعتبرون فلسطين جزءاً من سورية ، ولذلك أطلقوا عليه اسم « سورية الجنوبية » ، الإسم الذي ظل موجوداً حتى الاحتلال الفرنسي لسورية الداخلية سنة ١٩٢٠ ، ومن ثم أخذ الإسم في الاختفاء تدريجياً .

أما بالنسبة للأتراك الذين حكموا البلاد لأكبر فترة في تاريخها ، فلم تكن فلسطين في مصطلحاتهم السياسية غير وحدتين إداريتين هما : بيروت والقدس .

وحيث أن بالستين هو الإسم المعترف به في الأدب المسيحي ، للبلاد ، فقد دخل هذا الإسم ، قبل الاحتلال الإنجليزي وبعده ، الى المعاهدات والنصوص السياسية ، فقـد استعمل في تصريح بلفور ، وفي اتفاقية السلام مع تركيا (لوزان ٢٤ يوليو ١٩٢٣) ، كما حواه صك الانتداب ، والآن يطلق عليه المحتلون اليهود إسم « إسرائيل » .

---

(١) Encyclopaedia of Islam, Vol. II, p. 107; UJE, op. cit; JE, op. cit.

وقـد أُطلقت على فلسطين أسماء أخرى ، شاعرية ورمزية ، مثل البلاد المقـــدسة ، والبلاد الموعودة ، وبلاد التوراة وبلاد الآباء [1] . وبعـد انقسام الدولة اليهودية عقب وفاة سليمان عليه السلام ، كانت الدولة قـــد انقسمت إلى شطرين ، فعرف الشطر الشمالي بإسرائيل (أو إفرائيم أو ساماريا) وعرف الشطر الجنوبي بـ « يهوذا » Judah ، وفي العصر الهيليني كانت تسمى يهودية Judaea وهو الإسم الذي سجله العهد الجديد .

وهكذا يتضح أن البلاد المقدسة — حتى في أسمائها — لا تؤيد دعوى اليهود بأنها كانت بلادهم .

---

(١) UJE, op. cit.

الفَصْلُ الثّاني

سكان فلسطين الأقدمون ، من هم ؟

(حقوق العرب في فلسطين)

« حقٌ احتُفِظ به بطريق بسيط صدوق دؤوب منذ خرج الانسانُ من غياهب المجهول ، وربما كان أبسط وأوضح حق من حقوق الملكية في العالم » .

المؤرخ البريطاني جفريز
فلسطين ، إليكم الحقيقة ، ص ٣٧

« ان رأي الفقهاء الأكفاء من أهل الخبرة والمعرفة أن فلاحي فلسطين الناطقين بالعربية هم أخلاف للقبائل الوثنية التي كانت تعيش هناك قبل الغزو الاسرائيلي ، وظلت أقدامهم ثابتة في التربة منذ ذلك التاريخ » .

البروفسور فريزر

منــذ أقدم العصور [1] كانت شعوب الجنس السامي — أي العربي — تسكن فلسطين بعــــد أن انتقلت إلى سوريا والجزء الجنوبي منهــا — فلسطين — في سلسلة طويلة من الهجرات ، لا نعرف على وجه اليقين في أي عصر بدأت . إلا أن « الهجرة الكنعانية هي أقــــدم الهجرات التي نعرفها عن يقين ، وكانت موجتهــا الاولى تشمل الفينيقيين الذين توغـــلوا حتى أقصى الغرب » [2] . ولذلك تسمي التوراة القبــائل التي عاشت غربي الأردن بالكنعانيين وتطلق على تلك البـــلاد اسم « أرض الكنعانيين » . إلا أن تلك التسمية غير دقيقة لأن الشعوب التي كانت تعيش غربي نهر الأردن يمكن تسميتها بدقة ، بالآموريين Amorites ، الذين انقسموا فيما بعــــد إلى سبع قبائل هي : الآموريون (العموريون) ، والكنعانيون ، والحيثيون Hittites ، والحيويون Hivites ، والغرغازيون Girgazites ، والبرزيون Perizzites (الفرزيون) واليبوسيون Jebusites . وكان الحيثيون من هؤلاء ، غير ساميين [3] .

---

(١) كانت أولى هـذه الهجرات سنة ٣٥٠٠ ق.م. التي اتجهت من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقي ،وعلى هذا فإن العرب يوجدون في فلسطين منذ خمسة آلاف سنة على الأقل ، يراجع : حتي ، د. فيليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة د. جورج حـــداد وعبد الحكيم رافق ، بيروت ١٩٥٨ ، الجزء الأول ، الفصل السادس .

(٢) Luke, Handbook of Palestine, p. 9.

(٣) Ibid.

ولم يكن الإسرائيليون قد استقروا بعد حتى وقع الغزو العظيم للشعب الشمالي البحري الذي انطلق إلى فلسطين وسيطر بعرباته « الحديدية » على السهول الشمالية من فلسطين ، وهؤلاء هم الفلستينيون ، وهم شعب غير سامي ، جاءوا إلى فلسطين من منطقة إيجه [١] ، ويقال إن موطنهم الأصلي كان كريت .

وكانوا شعباً يتعاطى الزراعة والتجارة . وكانوا يملكون ثقافة متقدمة وعريقة ، على حد قول البروفسور روبنسون [٢]، وهو يضيف : « إنها سخرية عجيبة من سخريات القدر أن كتب على لفظة فلستيني أن تكون مرادفة لكلمة بربري ، وقد نشأ هذا الاستخدام اللفظي لأن تاريخ أيامهم وصل الينا عن طريق الإسرائيليين الذين لم يكن في ضميرهم إنصاف لأعدائهم . » [٣] وقد استخدم اليهود القدامى إسم « فلستيني » حتى جعلوه مرادفاً للسكير العربيد ، ولكن الحقيقة هي أن الفلستينيين كانوا على درجة كبيرة من الحضارة تفوق حضارة الإسرائيليين[٤]. وكان هذا الحنق والحقد طبيعياً لأن الفلستينيين طالما قاوموا

---

(١) ENCY BRIT (Encyclopaedia Britanica), USA, 1960, Vol. 17, p. 126.

(٢) جفريز ، « فلسطين : اليكم الحقيقة » ص ٤٦ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) يراجع عن تاريخ الفلستينيين وحضارتهم :
Stewart Mecalister,
The Philistines, their history and civilization, London, 1914.

التوسع اليهودي ، وتقول التوراة عنهم واليهود : « وكان الرب مع يهودا فملك الجبل ، ولكن لم يطرد سكان الوادي لأن لهم مركباتُ حديدٍ »[١] ، ولم يتمكن من إخضاعهم أحد من ملوك اليهود غير داوود وسليمان عليهما السلام، ولفترة بسيطة من الزمن .

وداوود عليه السلام الذي طالما قاتل الفلستينيين كان قد اتخذ قواته الشخصية وحرسه الخاص — من « هؤلاء الجدود للعرب »[٢] . وحين أقام شاؤول مملكته لم يستطع أبداً أن يسيطر على سهل مرج عامر الذي كان يسكنه الفلستينيون، لدرجة أن الفلستينيين كانت لهم قلعة تشرف على وادي الأردن ، « وليس هناك من دليل على أن داوود نفسه قد استولى على سهل مرج ابن عامر ... ليس هناك من دليل مباشر . »[٣]

أما **الكنعانيون** ، فهم شعب سامي عربي ، وأحياناً يطلق إسمهم ، كما سبق ، على كل القبائل غير الإسرائيلية في فلسطين ؛ هذا رغم أنه معروف أن العبريين نشأوا من قبائل العرب البدو[٤]. ويُعتَبر الكنعانيون من العرب البائدة ، وعنهم يقول المؤرخ بريستيد Breasted : « إن الكنعانيين من القبائل العربية

---

(١) القضاة ، الأصحاح الأول : ١٩ .
(٢) جفريز ، ص ٤١ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) Bentwich, Palestine, p. 2.

التي استوطنت فلسطين منـذ عام ٢٥٠٠ ق. م. »[١] . ويرى المؤرخ العربي الطبري أن كنعان « هو أحد أبناء نوح ، والذي تسميه العرب « يام » أيضاً، ومنه قولهم: « إنما هام عمنا يام. »[٢] ولكنه في مكان آخر يقول إن كنعان هو ابن حام بن نوح [٣] . وقد تعرض الكنعانيون، مثل الفلستينيين ، لكل نوع من الحقد والعدوان اليهودي ؛ وكان ذلك طبيعياً ، لأنـــه على حد قول التوراة : « ... إنهم لم يلاقوكم بالخبز والماء في الطريق عنـــد خروجكم من مصر »[٤] . إلا أن مؤرخي العصر يؤكدون أن الكنعانيين « **كانوا أكثر بكثير من حضارة بالنسبة الى الاسرائيليين** »[٥] . ويقول دين ستانلي :

« إذا كانت تأريخات غير اليهود عن
قسوة عبادة الأصنام عند هـذا الجنس

---

(١) طربين ، د. أحمد ، قضية فلسطين ١٨٩٧ – ١٩٤٨ ، محاضرات في التاريخ السياسي ، الجزء الأول ، د. ت. ص ١٤ .

(٢) تاريخ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمـــد بن جرير الطبري ، تحقيق محمـد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعـارف ، القاهرة ١٩٦٠ الجزء الأول ص ١٩١ .

(٣) الطبري ، المصدر السابق ص ٢٠٢ وكذلك ص ٢٠٦ .

(٤) سفر التثنية، ٢٣ . وعلى ذلك فالصهاينة الجدد معذورون في مذابح دير ياسين وكفر قاسم وقبيه وغيرهـا من مئات المجازر، لأن الشعب الفلسطيني لم يقابلهم على مينائي حيفا ويافا وعلى مطار اللد بالخبز والماء !

(٥) Luke, p. 10.

(كنعان) غير معقولة ، فإن الصور الإسرائيلية لهـذه التأريخات لا تعير وزناً في الغالب إلى نبالة ذلك المظهر الذي خلعه هـــذا الشعب العظيم على العالم الغربي . »

وهو يضيف :

« ومــــا جنس الكنعانيين ، الملعون حسب مـا جاء في أسفار أشعيا ، والقضاة ، إلا ذلك الجنس عينه الذي كنا نتطلع اليه عبر القرون من بلاد اليونان باعتباره أبا الكتابة والتجارة والحضارة . »[1]

والكنعانيون هم ، كما سبق أن أشرنا اليه ، أحـــد فروع **الآموريين** الذين قد جاءوا إلى فلسطين في زمن لا يقل عن بداية الألف السنة الثالثة التي سبقت ميلاد المسيح . وقد انصهروا تماماً مع من سبقوهم من المهاجرين لدرجة أن هويتهم الخاصة قـــد ضاعت في معظم المناطق (البروفسور روبنسون)[2] . ويرى جفريز أن الآموريين كانوا يمثلون الطراز السامي الحقيقي وأنهم

---

(١) جفريز ، ص ٤٦ .
(٢) « ، ص ٣٧ .

قد أورثوا ملامحهم إلى أخلافهم العرب [١] . وبعـــد ذوبان الآموريين ظل اسم الكنعانيين هو الذي يحمل طابع الشمول الذي يمـــيز سكان فلسطين غير الإسرائيليين والسابقين على هجرتهم [٢] . وكان من الفروع الكنعانية المعروفة **اليبوسيون** المشهورون ، الذين كانت عاصمة بلادهم مدينـــة القدس القديمة المعروفة باسم أورو — ساليم (مدينة السلام) التي يوجَد مكانُها الآن خارجَ أسوار مدينـــة القدس الحالية [٣] .. وكانوا على درجة كبيرة من الحضارة ، وكانوا يتـْبعون فراعنـــة مصر ويدفعون لهم الخراج ، وقـــد كشفت حفريات تل العمارنة عن « ملك أورساليم » King of Urosalim [٤] .

وقد قـــاوم اليبوسيون الإسرائيليين مقاومة عنيدة أخرت احتلال أورو — ساليم ١٤٠ عاماً تقريباً ، حيث أن الملك داوود هو الذي استطاع احتلالها عام ١٠٤٩ ق.م. ، واتخذ منها عاصمة لمملكته [٥] .

ولا مجـــال للشك في أن عرب فلسطين اليوم هم أخلاف الكنعانيين واليبوسيين والفلستينيين الذين صمـــدوا في الأرض

---

(١) جفريز ، المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) Luke, p. 9.

(٥) Ibid. p. 11.

رغم كل الطغيان اليهودي والغزوات الخارجية المستمرة . يقول الأستاذ فريزر :

« إن رأي الفقهاء الأكفاء من أهــل الخبرة والمعرفة أن فلاحي فلسطين الناطقين بالعربية أخلاف للقبائل الوثنية التي كانت تعيش هنــاك قبل الغزو الإسرائيلي وظلت أقدامهم ثابتــة في التربة منذ ذلك التاريخ ، وتوالت عليهم موجات الفتح المتعاقبــة التي طفت على البلاد دون أن تحطمهم . »[1]

ويقول السير ريتشارد تمبل عن هؤلاء الفلاحين أنهم :

« الأخلاف الأصلاء للكنعانيين الذين ورد ذكرهم في التوراة ، إنهم أخلاف اليبوسيين والعموريين . ولا بد أنــه كانت لهم شخصيتهم الخاصة الأصيلة ، وكان لهم شكلهم الثــابت من أشكال المجتمع وقد يكون نظامهم قــد تهدم بفعــل الغزو اليهودي ، لكنهم ، كما سيذكر قــارئو التوراة ، لم يخضعوا أبداً للنفوذ اليهودي ، بل إنهم ، على

---

(١) جفريز ، ص ٣٦ – ٣٧ .

العكس من ذلك ، قد جعلوا القومية
اليهودية في كثير من الأحيان تُحِسّ
بقوة أثرهم إحساساً ينذر بالكارثة .
ولا يكونون قد تحولوا إلى المسيحية
بأعداد كبيرة في أيامها الأولى . إنهم
بالاختصار قد أقاموا على عبادتهم القديمة
للأوثان حتى جاء محمد ...
« إنهم يفلحون الأرض كفلاحين ملاك
من الدرجة الأولى ويخضعون مباشرة
للموظف الرسمي التركي المكلف بجباية
ضريبة الأملاك . » [1]

وباختصار ، فإنه يجب ألا يظن أحد « أن أسلاف عرب فلسطين كانوا يمثلون البربرية بكل مظاهرها لأنهم كانوا فلاحين، أو لأنهم أقاموا على الوثنية أمداً طويلاً على النقيض من حضارة الإسرائيليين . لقد كان الفينيقيون (أحد فروع كنعان) أولئك التجار الذين جابوا آفاق العالم القديم وبلغوا شواطىء بريطانيا ذاتها . » [2]

ولعله لا مجال للشك بعد هذا — وكما سيتضح أكثر من خلال

---

(١) المصدر السابق .
(ومقال السير ريتشارد قبل مكتوب سنة ١٨٨٨ .)
(٢) جفريز ، ص ٤٥ — ٤٦ .

استعراض تاريخ فلسطين قبل العروبة الصريحة — **أن اليهود لم يكونوا إلا مجرد عابري سبيل في تاريخ فلسطين الحافل**، وعلى حد تعبير أحد مؤرخيهم المعروفين المستر بنتويتش :

« إن سكان الكهوف والحيثيين ،
الآمونيين (العمونيين) والفلستينيين ،
العبريين والفينيقيين ، البابليين
والآشوريين ، الهيلينيين والرومان ،
الفرس والعرب ، الفرنجة والمسلمين ،
المصريين والأتراك ...

« إنهم كلهم قد قاتلوا بدورهم لأجل
البلاد وفتحوها وتركوا وراءهم
آثارهم . » [1]

---

(١) Bentwich, Palestine, p. 2.

الفصل الثالث

اليهود يغزون البلاد
١٢٢٠ ق.م.

« وحرّموا (أهلكوا) كلّ من في المدينة
من رجـــل وامرأة وطفل وشيخ حتى
البقر والغنم والحمير بحـــدّ السيف ،
وأحرقوا المدينةَ بالنار مع كل ما بها .
إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد
اجعلوها في خزانة الرب . »

« ... وضرب يشوع كلّ أرض الجبـــل
والجنـــوب والسهول والسفوح وكلّ
ملوكها ، لم يُبق شارداً ، بل حرّم كلّ
نسمة كما أمر الربُّ ، إلهُ إسرائيـــل .
فضربهم يشوع من قادش برنيع الى غزة
وجميع أرض جوش الى جعبون.»[١]

قبيل نهاية العصر البرونزي [٢] شهدت فلسطين ، التي كان

---

(١) سفر يشوع ، مقتطفات من الاصحاح ٦ و ١٠ .

(٢) ENCY BRIT, Vol. 17, p. 126.

يسكنها الفلستينيون واليبوسيون وقبـــائل أخرى كنعانية والزكـّاليون (شعب شمـالي) ، غزواً جديداً جاء من صحراء سيناء في صورة اليهود الذين كان يقودهم يشوع ، وكان يحاول غزو البلاد بالأسلوب الذي رأينـــاه آنفاً من بعض المقتطفات من التوراة التي سجلت بتفصيل همجيةَ هــذا الغزو ولاإنسانيتَه ، وقـــد حلل العلامة غوستاف لوبون العلل الكامنة وراء تلك الوحشية ، قائلاً : « إن عدد بني إسرائيل واحتياجاتهم وبؤسهم في مصر وحرمانهم الهائل في التيه مما جمع بينهم وأقنطهم فصاروا كقطيع من الذئاب الهزيلة التي دفعهـا الجوع إلى الاقتراب حتى من المدن » [١] . ورغم أنه لا يمكن تحديد الزمن الذي بدأ فيه بالتحديد هذا الغزو [٢] ، إلا أن الميل العام للتواريخ المتاحة لنا – كما يقول البروفسور روبنسون – يذهب إلى إعطاء الفتح اليهودي تاريخاً في القرن الرابع عشر قبل الميلاد « بيدَ أن مجال التخمين هنا ضيق » [٣] . ويقول مصدر يهودي رسمي أن هــذا الغزو وقع سنة ١٢٢٠ ق. م. ، ويضيف : « ولم يكتمل هــذا الغزو ، رغم استمرار الحروب سنوات طويـــلة ، ولم ينجح الإسرائيليون في طرد القبـائل الوطنية ، كما أنهم تركوا بعضَها في أوطانها دون تحرُّش . ولذلك قامت فيما بعد ممالكُ المؤابيين

---

(١) غوستاف لوبون ، ص ٣٥ .
(٢) جفريز ، ص ٣٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

والعونيين والإيدوميين ، والتي كانت مستقلة بصفة عامة ، وإن دفعت الخراجَ إلى ملوك إسرائيل (المتحد) أو إلى يهودا أو إلى إسرائيل » [١] .

ويكمن سبب نجاح العبريين في غزو بعض أجزاء فلسطين في الانقسام العظيم الذي كانت تعـــاني منه العشائر الكنعانية ...

«إن استقرار العبريين تمّ بالتدريج على ما نرى؛ **فالعبريون قضوا زمناً طويلاً ليكون لهم سلطان ضئيل في فلسطين لا أن يكونوا سادتها** . والعبريون إذ كانوا منقسمين ، كالكنعانيين ، إلى عــدة عشائر تسمى أهمها بأبنـاء يعقوب رمزاً إلى الأسباط ، لم يتفقوا فيما بينهم حتى على إكمال الفتح . ومضى جميعُ دور القضاة، الذي عُدّ دور بطولة العبريين التاريخي ، في القتــال الجزئي بجماعات صغيرة ، وذلك بأن تدافع كل جماعة بشقة عمـا استولت عليه من قطعة أرض . » [٢]

وعلى ذلك : « لم يكن هناك فتح بالمعنى الصحيح ، على الرغم من أقاصيص مؤرخيهم المـلوءة انتفاخاً ، ومن تعــداد الانتصارات ، وتقتيل الأهــالي ، وانهيار أسوار أريحا بالنقر في النواقير ، ووقف يوشع للشمس إمعاناً في الذبح . » [٣]

ومن الواضح أن القبائل العبرية لم تستولِ على كل فلسطين ،

---

(١) UJE, VIII, p. 354.

(٢) غوستاف لوبون ، ص ٣٤ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

وكما يقول بيللوك في كتابه (أرض المعركة) : « لقد عيّن يشوعُ رقعةً لقبائل لم تستطع أن تملأها » [1] .

والتوراة نفسها تؤكد أن اليهود لم يمتلكوا مساحات شاسعة من الأراضي التي طلبَ منهم قوادُهم غزوَها :

« ... وقد بقيت أراضٍ للامتلاك كثيرة جداً . وهذه هي الأراضي الباقية : كل بقاع الفلسطينيين (الفلستينيين)، وكل أرض الجشوريين من الشيحور (الفرع الشرقي من النيل) الجاري في مصر إلى تخم عقرون (مدينة إلى الجنوب الشرقي من يافا) شمالاً وهي للكنعانيين، ومعارة (أفقا بلبنان) إلى تخوم الأموريين ، وأرض الجبليين (نسبة إلى مدينة جبيل اللبنانية) وجميع لبنان جهة مشرق الشمس من بعل جاد (مدينة على سفح جبل الشيخ لعلها مدينة حاصبيا الحالية) تحت حرمون إلى مدخل حماه ... » [2]

---

(١) جفريز ، ص ٤٠ .   (٢) يشوع ، الاصحاح : ١٣ .

وهناك نقطة أخرى بالغ فيها اليهود وهي الأعداد التي دخلوا بها ، ولكن لا يمكن أن تكون أعداد اليهود الفازين أكثر من مائتي ألف[١] ، ولا بد أن هـذا العدد يشمله عدد البدو العبريين الذين انضموا إلى الإسرائيليين في غزو الكنعانيين الهادئين [٢] . ولعل هذا العدد يشمل النساء والأولاد أيضاً ..

ولكن الغزو لم يكتمل أبداً ، لأن مجيء الفلستينيين من بلاد الشمال في عهـد رمسيس الثالث ، وسيطرتهم على الأجزاء الشمالية — أو وادي جزريل (عزدرائيلون) — حالا دون ذلك الطموح الإسرائيلي . وقـد غزا الفلستينيون كل فلسطين خلال قرن ونصف قرن عقب استيطانهم[٣] .

أمـا كيف غزا اليهود فلسطين ؟ إن التوراة تكفينا مؤونة إلقاء الضوء على هذه القضية ، قضية الشعب اليهودي الفريدة في التاريخ ، والتي لا مثيل لهمجيتها وشراستها وحقدها ؛ وقـد لا نتمكن من مقارنة الوحشية اليهودية الاولى إلا بما فعلوه في غزوهم الجديد لأرض كنعان ، في دير ياسين ، وكفر قاسم وقبية وغيرها المئـات من القرى والمدن العربية (ويمكننا أن نستبدل اسم يشوع بموشي وأسماء المدن الفلستينية القديمة بالأسماء الجديدة

---

(١) Luke, p. 10.

(٢) ENCY BRIT, op. cit.

(٣) Ibid.

لنرى كيف يمكن للهمجية أن تتكرر بعد ثلاثة آلاف سنة بكل التفاصيل الدقيقة) :

« ... وأخذ يشوعُ مقيدةَ في ذلك اليوم وضربها بحدّ السيف وحرّم ملكها وكلّ نفس بها، لم يُبقِ شارداً، وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنة وحارب لبنة . فدفعها الرب هي أيضاً بيد إسرائيل مع ملكها ، فضربها بحدّ السيف وكلّ نفس بها ، لم يُبقِ شارداً ، وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا . ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لبنة إلى لخيش ونزل عليها وحاربها وضربها بحدّ السيف ، وكل نفس بها حسب كل ما فعله بلبنة . ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لخيش إلى عجلون فنزلوا عليها وحاربوها وضربوها بحدّ السيف وحرّم كل نفس بها في ذلك اليوم حسبَ كل ما فعل بلخيش . ثم صعدوا إلى حبرون (الخليل) وأخذوها وضربوها بحدّ السيف مع ملكها وكل

مدنها وكل نفس بهـا ، لم يبق شارداً ،
حسب كل ما فعل بعجلون ، فحرّمها
وكلّ نفس بهــا . وضرب يشوع كل
أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح
وكلّ ملوكهــا ، لم يبق شارداً ، بل
حرّم كل نسمة ، كما أمر الربُّ إلهُ
إسرائيل ، فضربهم يشوع من قــادش
برنيع إلى غزة وجميع أرض جوش إلى
جبعون . »

يشوع ، الاصحاح : ١٠

وفي نفس الوقت الذي وقع فيه الغزو الإسرائيلي كانت ثلاثة شعوب سامية عربيـــة تستوطن جنوب شرق الأردن وهم الإيدوميون (العرب) في الجنوب الذين كانوا سوف يغزون عن قريب : مملكةَ الإسرائيليين ؛ وكان الموآبيون يسكنون جنوبي البحر الميت ، وفي جنوب جلعــاد على حافة الصحراء السورية كان يسكن العمونيون . وكانت هــذه الشعوب قــد استوطنت في تلك الأرض قبل الغزو الإسرائيلي وظلت مؤمنة بتعدد الآلهة حتى نهاية العهد القديم [١] .

فالأرض لم تكن خالية حين غزاها اليهود ، بل كان هنـاك

---

(١) Ibid.

الكنعانيون في وسط البلاد والفلستينيون في شمالها وجنوبها ثم هذه الشعوب السامية العربية الآنفة الذكر . ولم يكن الغزو الإسرائيلي إلا غزواً مسلحاً ناجحاً مثل أي غزو آخر يفرض مشروعيته بالسلاح. وما يجب ملاحظته أن الاسرائيليين دخلوا البلاد في أول الأمر مسالمين وبأعداد صغيرة ، ثم حملوا السلاحَ وبدأت الغارات المدونة في كتاب العهد القديم [١] ؛ وهذا ما فعلوه بالضبط حين غزوها في المرة الثانية في النصف الأول من القرن العشرين .

والذين تولوا أمر القبائل في أول الأمر يسمون بالقضاة .

ويتباهى اليهود كثيراً بعصر القضاة ، وبعد التحليل تسقط أهمية تلك الحقبة من التاريخ العبري . يقول عنها غوستاف لوبون :

« والحق أنك لا تجد قاضياً استطاع أن يبسط سلطانه على جميع بني إسرائيل ، فكل واحد من هؤلاء الحكام أو الشيوخ كان يتسلم قيادة زمرة واحدة عندما تُهدَّد هذه الزمرة تهديداً مباشراً ، وهو إذا ما كُتب له النصر لم يحتفظ حتى بتلك القيادة » .

---

(١) جفريز ، ص ٣٨ .

« وقد استمر الأمر على هذه الصورة ، أي من غير تبديل ، مدة أربعة قرون . » (١)

« ومـا أتى به مؤرخو اليهود من تدوين لتلك الحوادث عقب وقوعها مع تجسيم عظيم هو دون ما صنعته الكنيسة النصرانية بعد ذلك . » (٢)

وفي أول الأمر ظلّ الإسرائيليون يتخاصمون ويتصارعون في صراعات عنيفة (٣) ؛ ولولا هجمات الجيران المستمرة ، لما كان الإسرائيليون قد توصلوا إلى تضامن سياسي ؛ وحيث أن النجاة من الأعداء لم تكن إلا في الوحدة ، فبعـد محاولات عقيمة لتوحيدهم تحت حكم رجل واحد ، أصبح **شاؤول** Saul ملك الإسرائيليين سنة ١٠٢٠ ق. م. تقريباً (٤) . وقـد قتل شاؤول على أيدي الفلستينيين ، خـلال معاركه الكثيرة معهم ، سنة ١٠٠٠ تقريباً . وفي عهـد شاؤول حالت أحقـادُ القبائل دون استقرار حكومته (٥) .

---

(١) غوستاف لوبون ، ص ٣٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦ .
(٣) Luke, p. 10.
(٤) ENCY BRIT, op. cit.
(٥) Luke, op. cit.

وماذا كانت حال بني إسرائيل قبل ملكهم الأول شاؤول ؟ يجيب على ذلك العلامة غوستاف لوبون :

« كان بنو إسرائيل أقل من أمة حتى زمن شاؤول، كانوا أخلاطاً من عصابات جامحة ، كانوا مجموعة غير منسجمة من قبائل سامية صغيرة أفّاقة بدوية تقوم حياتُها على الغزو والفتح والجدب وانتهاب القرى الصغيرة حيث تقضي عيشاً رغيداً دفعةً واحدة في بضعة أيام ، فإذا مضت هذه الأيام القليلة عادت إلى حياة التيه والبؤس . » [1]

« تمّ خروج بني إسرائيل قبل الميلاد بنحو خمسة عشر قرناً تقريباً ، وهم لم يفكروا في تأليف أمة واحدة منهم ونصب ملك عليهم إلا في أوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد .

« والواقع أن فتح فلسطين في عهد شاؤول كان بعيداً من التمام . وفي فلسطين كان يعيش اليبوسيون

---

(١) غوستاف لوبون ، ص ٣٢ .

والعمونيون وطائفة من الأمم الصغيرة
بجانب بني إسرائيل ، وكان السلطان
في فلسطين للفلسطينيين: العرق الوحيد
الذي هو آري على ما يحتمل ، فاجتمعت
الأسباط تحت لواء زعيم واحد ، للمرة
الاولى منذ دخول بلاد كنعان ، وذلك
لكيلا تُسحق . » [١]

واستطاع داود (١٠٠٠ – ٩٦١ ق. م.) أن يصبح أمير يهودا بعد شاؤول ، لكنه لم يتمكن من إخضاع القبائل اليهودية إلى أن قَتَلَ إشبوشيث Ishbosheth ابنَ شاؤول ، وأبنير Abner ، قائدَ جيوش شاؤول [٢] .

وقد واصل داود حرب أسلافه ضد الفلستينيين وتمكن من إخضاعهم سنة ٩٩٠ ق. م. تقريباً ، وأقام إدارةً على الطراز المصري القديم [٣] . وقد أجبر دمشق على دفع الخراج له ، كما أحبط مؤامرة ابنه أبسولوم Absolom ، وكذلك أخمد ثورة الولايات الشمالية من مملكته ، وأخضع الموآبيين – ألدّ وأقدم أعداء إسرائيل – والإيدوميين والعمونيين [٤] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٥ .
(٢) Ibid, pp. 10 - 11.
(٣) ENCY BRIT, op. cit.
(٤) Luke, p. 11.

والأمر الذي له دلالته الخاصة من وجهة نظرنا هو أن داود لم يصل إلى رأس مملكته مرفوعاً على السواعد الإسرائيلية بل رفعته سواعد أجداد عرب فلسطين المعاصرين. يقول البروفسور روبنسون عن جيش داود :

« إن مما يدعو إلى الاهتمام أن نلاحظ أن القوة الأساسية لهذا الجيش الدائم كانت تُستَمَدُّ من مصادر أجنبية ، لأن الشريطيين والبليطيين كانوا فلسطينيين (فلستينيين) على وجه اليقين ، ولم يكونوا يشكّلون عمادَ قوة داود الشخصية فحسب ، **بل إن وجودهم في صفوف جيش داود قد ذهب الى مدى تنصيبه على العرش .** لقد كانوا بالنسبة لداود كما كان الحرس البريتوري بالنسبة إلى أباطرة الرومان . »[1]

ويعلق المؤرخ الإنجليزي جفريز قائلاً عن هذه الحقيقة إنه بهذا « ... **قد أسهم العرب بالنصيب الأكبر في إعطاء العرش**

---

(١) جفريز ، ص ٤١ .

لسليمان . » [١] الذي يمثل أوجَ العصرِ السياسي لإسرائيل [٢] .

وقد نجح سليمان (٩٦١ – ٩٢٢ ق. م.) في تنظيم الحيـاة الاقتصادية للبـلاد ، رغم أنه َفقَدَ السيطرةَ على بعض الأقطار التي فتحهـا داود [٣] ، ومنهـا دمشق التي تخلصت من نير الإسرائيليينَ ، وكذلك تمرد الإيدوميون ، وبدأت الانشقاقات تظهر في الداخل بين الإسرائيليين أنفسهم [٤] .

وقد أقـام سليمان علاقات تجارية مع العرب حتى جنوبي الجزيرة مع أهل سبأ (اليمن) [٥] . وسليمان هو الذي أقام المعبد اليهودي الذي يعرف باسم (الهيكل) ، وشهد عصرُه « محاولات ناجحة لتقبُّل الحضارة القيّمة للكنعانيين ولشعوب مجـاورة كمصر » [٦] .

وقـد حكم سليمان حكماً قاسياً ، ففرض على الشعب العمل الإجباري في «عصابات العمل الملكية» Royal Labour gangs ، وفرض عليهم ضرائبَ باهظة [٧] . « وسياسة سليمان كانت

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ENCY BRIT, op. cit

(٣) Ibid.

(٤) Luke, p. 11.

(٥) ENCY BRIT, op. cit.

(٦) Luke, p. 11.

(٧) ENCY BRIT, op. cit.

بعيدة جداً عن توحيد ودمج عرى الفريقين (اليهود الجنوبيون واليهود الشماليون) ، بإحكام ، (بل) كانت تميـل على الأرجح إلى تأكيد الفارق بينهما وإلى توسيع الهوّة الأصلية التي تفصلهما... إن الشمال كان الشريك السيد، وفي وسعنا أن نشك في أن تعاون الجنوب لم يكن عن طواعية كليـة ... الأساس لهذا الإحساس (بين يهودا وإسرائيل) بوحـدة الذات لا يكمن في الانحدار من أصل مشترك بقدر ما يكمن في الدين المشترك . لقد كان اليهودي يقف بمعزل دائم عن الإفرائيمي »[١] . ولا غرابـة فإن أباه ومعلمه داود نفسه كان يؤمن بهذه الحيل ، فقد أنقـذ عرشه في مناسبتين على الأقل بأن لعب بإحدى ولايتيه — يهودا الجنوبية وإسرائيل الشمالية — ضد الأخرى ، كما حصل على تأييـد بعض القبائل ضد الأخرى، على نحو ما أكده البروفسور روبنسون[٢].
وفي ضوء هذه السياسة الاستغلالية من جانب الملك ومن جانب الفريق الأقوى — الشمال — لم يكد سليمان يموت حتى انقسمت دولتـُه إلى جزئين : يهودا Juda في الجنوب ، وإسرائيل في الشمال[٣] . والشماليون هم الذين تسبّبوا في هذا الانقسام وبذلك مزّقوا المملكة اليهودية المتحدة سنة ٩٢٢ ق. م. تقريباً[٤] .

---

(١) جفريز ، ص ٤٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢ .
(٣) Luke, p. 11.
(٤) ENCY BRIT, op. cit.

وحيث أن فترة داود وسليمان هي الفترة التي يفتخر بهـــا اليهود ويدعّمون بذكرها دعوامم بأنهم ملكوا كل الأرض « من نهر مصر إلى الفرات » ، فهي في حاجة إلى إلقاء بعض الضوء ؛ ويكفينا المؤرخ جفريز مؤونة هذه المهمة . إنه يقول :

« لقــد حكم داود نحواً من أربعين عاماً من تاريخ حوالي ١٠١٦ ق.م. ، وخلفه سليمان وحكم ما يماثل هذه المدة . وبعد هذين انهارَ كل شيء . لا بد أنه اقتضى داود أن يصرف جزءاً لا بأس به من النصف الأول من فترة حكمه لكي يبلغ أوج سلطانه . أمــا سليمان فقد أخذ يبيع قبل نهـــاية حكمه أجزاء من ممتلكاته أو يفقدهــا . فدعنا نُسقِط عشر سنوات من هذه الفترة وهذا هو أقل ما يمكن لنـــا أن نُسقطه عقلاً من مجموع فترتي حكم سليمان وداود . وعندئذ يتبقى سبعون عاماً ...

« ولم يحدث إلا في بحر هــذه السبعين سنة أن سيطر العجاف على شيء يقرب من ثلثي البلاد . » [1]

---

(١) جفريز ، ص ٤٢ .

أما عن حدود داود ، فيقول « وايد » في كتابه « تاريخ العهد القديم » :

« أغلب الظن هو أن إمبراطورية داود لم تلامس البحر إلا في مكان قريب من يوپا (يافا) ، وقد تُرِكَت مدينتا صور وصيدا الفينيقيتان الواقعتان إلى الشمال من هذه المدينة دون أن يتحرش بها أحد ، في حين احتفظ الفلسطينيون في الجنوب الشرقي من هـــذه البلاد (فينيقية) باستقلالهم بالرغم من أنهم كانوا مضعضعين . »[1]

وبهذا يتبين أن حدود المملكة الإسرائيلية في أوجها لم تكن ذات قيمة داخل فلسطين نفسها ، فهذه الحدود في أوج خيلائها ، كما يصف بيللوك ، كانت « **مائة وعشرون ميـــلاً في أطول أطوالها وستون ميـــلاً في أعرض عرضها ، وأقل من ذلك بكثير في أغلب الأحيان** . كان شيئاً أشبه بالملك النمسوي المجري الذي يتربع على عرش إمبراطورية النمسا والمجر في حين تحارب النمسا والمجر إحداهما الأخرى !! . »[2]

---

(١) المصدر السابق .
(٢) » » .

وبدراسة مواقع القبائل اليهودية تتضح حقيقة غريبة هي أن الغزاة الإسرائيليين احتلوا الجبالَ دون السهول ، وعلى حد قول دين ستانلي ، المؤرخ المعروف : « إن فلسطين تعكس الآيةَ المألوفة ، هـــذه الآية التي يلجأ فيها أهلُ البلاد إلى التلال حين يُغلبون... لقد قهرَ اليهودُ التلالَ ، لكنهم أخفقوا في الاستيلاء على السهول »[1] .

وفي ضوء هـذه الحقائق عن وهن مملكة داود وسليمان ، لم يكن غريباً أنه لم يكد يغيب الملكان عن المسرح حتى «**... سقط الجزء الواقع على تخوم هـذه المملكة أولاً ، ثم تهاوى البناءُ كله عند أول لمسة من اختبار حقيقي ... لقد وُخِزَت الفقاعةُ فترِكَ بيتُ داود وليس في يده إلا رقعة ضئيلة وجديبة في حد ذاتهـا ، يقاسي من استشراء البغي والحروب** » .
(روبنسون)[2] .

« إن امتـلاك اليهود لفلسطين ، بكل معنى حقيقي من معاني كلمة الامتلاك ، لم يكن في يوم من الأيام كاملاً ، وإنه إنما ظلّ في رقعة داخل حدودها طوال مدة السبعين عاماً . ولقـد عُمّر بما لا

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٣ – ٤٤ .

يزيد عن عمر الرجل . وكان هذا قبل
ثلاثة آلاف عام. أما في عهد المكتّابيين
فكان هذا أقصر عمراً .. كان لما يقرب
من خمسين عاماً على أكثر تقدير.. »[1]

فالحقيقة هي أنه ليس في تاريخ دولة اليهود القديمة سوى عصر سليمان وأبيه داود ، الذي يمكنهم أن يفخروا به ،

« والمرء إذا ما صدف عنها لم يبصر
غير هوّة مظلمة دامية تزلّق فيها
هاويةً — بما يثير الحزن — تلك المملكة
الصغيرة التي منّ عليها داودُ وابنه
بعظمة مدة سنوات قليلة . »[2]

ولكن اليهود لا يأبهون بهذه الحقائق ، فهم أكثر الشعوب تعصباً وأكثرهم نشاطاً في نشر الأكاذيب (التي لفّقوها بأنفسهم) عن تاريخهم وحضارتهم المزعومة . لقد نشطوا منذ أقدم العصور على تضخيم تاريخهم تضخيماً عظيماً . لقد نحتوا بأنفسهم الأكاذيب عن عظمتهم المزعومة وظلوا يرددونها حتى أصبحوا

---

(١) المصدر السابق (جفريز) ص ٤٥ .

(٢) غوستاف لوبون ، ص ٤٠ .

أسرى تلك الأكاذيب نفسها . وهم قد فرضوا إرهاباً فكرياً غريباً ..

« .. ومع إمكان جهل الرجل المثقف العصري لتاريخ الحضارات العظيمة التي أينعت فوق أرض الهند جهلاً تاماً تجده لا يجرؤ على الاعتراف بأنه يجهل أعمال شمشون أو مغامرات يونان (يونس) الذي التقمه الحوت. »[1]...

« إن الشعب اليهودي لم يكن غير ذي نصيب ضئيل جداً في َشيْد ذلك البناء القديم ، غير أن القرون بلغت من تجسيم شأنه الظاهر ما لا ُتبْصِر معه سوى أناس قليلين،حتى بين أشدّ الناس ارتياباً ، تحرروا من سلطان الماضي فاستطاعوا أن يضعوا بني إسرائيل في مكانهم الصحيح . »[2]... «وحوادث كتلك لا ُيعنى بها التاريخ ، والتاريخ

(١) لوبون ، ص ١٥ — ١٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٩ .

إذا ما عُني بها كان ذلك لأسباب
مستقلة عن أهميتها ، ومن ذلك أن
حصار عصابة من البرابرة لمدينة
تِروادة الصغيرة واستيلاءَهم عليها قبل
الميلاد باثني عشر قرناً مما غدا حادثاً
ذا بال في تاريخ العالم ، لأن أوميروسَ
تغنّى به ، لا من أجل نتائجه .. ثم
أنعم سرابُ الخيال النصراني بعظمة
أكبر من تلك على منازعات هزيلة كانت
تقع منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة بين
عشائر صغيرة من البدويين النهّابين في
سبيل وادٍ يكون خصيباً بأحد
الجداول . » [1]

فهذه هي حقيقة الدّولة — أو بعبارة اليهود — «الامبراطورية العظيمة لداود وسليمان »، والتي بناءً عليها اخترع اليهود كلماتٍ لا وجود لها في أي قاموس علمي أو سياسي أو تاريخي أو اجتماعي في أي عصر من العصور ، مثل : « **العلاقة التاريخية** »، و « **الحق التاريخي** » ، و « **البلاد الموعودة** » !!

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

الفصل الرابع

دويلتا اليهود : إسرائيل ويهودا

«كانت إفرائيم (أو إسرائيل أو ساماريا) ويهودا قوميتين مختلفتين ، ولم تتحدا إلا لوقت قصير تحت حكم واحد . » [١]

عقب انقسام مملكة سليمان ، ظلت الدويلتان — إسرائيل ويهودا — تتخاصمان [٢] ؛ وكانت إسرائيل — الدويلة الشمالية — هي التي تعتدي على جارتها الجنوبية ، واستمرت المنازعات العسكرية المتقطعة بين الدويلتين حتى دخل ملك يهودا آسا Asa (٩١٣ — ٨٧٣ ق . م .) في تحالف مع مملكة دمشق ، وبذلك هاجمت هذه الأخيرةُ : إسرائيلَ ، فخففت من الضغط الواقع على يهودا [٣] .

---

(١) Bentwich, Palestine, p. 4.
وهذا الاتحاد كان في زمن داود وسليمان عليهما السلام كما سبق .

(٢) Luke, p. 11.

(٣) Ibid; ENCY BRIT, Vol. 17, p. 126.

وهذه المملكة ـ إسرائيل ـ التي يسميها محرر دائرة المعارف البريطانية ، ازدراءاً ، بالمملكة الذيلية Rump Kingdom ، بقيت لمدة قرنين ، وشاركت مع جارتها يهودا الصغيرة في عبادة يهوه وفي اتباع التقاليد الموسوية [١] ، ودفعت كلتاهما الخراجَ ، بعض الوقت ، للآشوريين [٢] . وبسبب الاختلافات المستمرة بين يهودا وإسرائيل تمكن جيرانها من التوسع على حسابها [٣] ؛ وخسرت إسرائيلُ بسبب غزو الدمشقيين كل أراضيها الواقعة شرقي الأردن وشمالي اليرموك ، ولم تنته الحروبُ بين إسرائيل ودمشق إلا سنة ٧٣٢ ق. م. حين غزا الآشوريون دمشق [٤] .

وفي سنة ٧٤٠ أصبح « جرسُ الموت مسموعاً » في الجزء الغربي من دولة اليهود (إسرائيل) حين استولى الملك الآشوري تيغلاث پليزر الثالث Tiglath Pileser على أرپد Arpad في شمالي سورية . وتتابعت الأحداث ، فدفعت كل من إسرائيل ويهودا الخراجَ لمملكة آشور ، لأول مرة بعد دهور ، سنة ٧٣٨ ق. م. ؛ وفي سنة ٧٣٣ ق. م. دمَّر الآشوريون جلعاد والجليل وحوَّلوا كل المنطقة إلى ولايات آشورية ما عدا أرض القبيلتين اليهوديتين منسّه الغربية وإفرائيم ، وحاصروا إسرائيل

---

(١) ENCY BRIT, op. cit.

(٢) Luke, p. 12.

(٣) Ibid. p. 11.

(٤) ENCY BRIT, op cit.

(ساماريا) سنة ٧٢٤ ق.م. ، وتمّ غزوها تماماً في الشهور الأولى من سنة ٧٢١ ق.م. ، فأصبحت إسرائيل «منقرضة سياسياً»[١].

وبعد تحطيم إسرائيل أرسل الآشوريون سكانها إلى الشرق واستبدلوا بهم سكاناً جدداً [٢].

وعن هذا يقول جون مارلو :

«وحسبَ الممارسة الآشورية المعتادة ، قد نُقلت أغلبيةُ السكان إلى جزء آخر من الولايات الآشورية وأُسكن في مكانها في ساماريا شعب آخر من فارس يسمى «الكوثيون» Cutheans والذين عُرِفوا بعد ذلك باسم السماريين. ومن ثمّ اختفى سكان مملكة إسرائيل من التاريخ» .

وهو يضيف قائلاً: أنه من المعتقد أن سكان إسرائيل الذين نفاهم الآشوريون قد اندمجوا تماماً مع الشعوب المجاورة في مناطق النفي [٣] .

ولم يبقَ الآن إلا يهودا كوارثة وحيدة لأمجاد داود وسليمان. وحاصر الآشوريون (يهودا) أيضاً، وحاول حذقياه Hezekiah

---

(١) Ibid.

(٢) Luke, p. 10.

(٣) Marlowe, Rebellion in Palestine, pp. 10 - 11.

(٦٨٦ – ٧١٤ ق. م.) منخدعاً بوعود المساعدة الأثيوبية أن يقاوم الآشوريين لكنه انهزم وأُجبر على دفع خراج قاصم الظهور. ولولا أن تفشى وباء ، في الوقت المناسب ، أهلك أعداداً عظيمة من الآشوريين ، لما نجَتْ يهودا من التدمير الكامل على أيدي الآشوريين [١] . وبقيت يهودا تعدّ أيامها فلم تكن تتمتع بالشوكة السياسية ، إلا أنها خدمت اليهودَ في التطور الروحاني لليهودية ، حيث نشط التأليفُ الديني ، وبذلك انتظمت الحياةُ اليهودية [٢] .

ويمكن القول أن حاضر يهودا – أورشليم – كانت تحافظ على بعض التفوق في فلسطين (وليس في العالم القديم ، كما يزعم اليهود) ، يقول غوستاف لوبون في ذلك :

« ولبضعة قرون تحافظ أورشليم ، حيث يملك آل داود ، على شيء من التفوق الأدبي ، فتكون مركزاً ثقافياً لفلسطين ، وذلك بأن غدا الكهنة يؤلفون الأقاصيص ، وبأن صار عظماء الأنبياء يُسمِعون أصواتَهم مُجِدّين مع أولئك ، على غير جدوى ، في

---

(١) ENCY BRIT, op. cit. p. 127.

(٢) Bentwich, op. cit. pp. 5 - 6.

إعادة وحـدة بني إسرائيل بوحـدة
تقاليدهم ودينهم . »[1]

أما حاضر إسرائيل (أو ساماريا) — نابلس — فلم يكن لها من فضل ، بل كانت مصدر الآلام لشعوب فلسطين كلهـا بسبب طبيعتها العدوانية ، يقول العلامة لوبون عنها :

« وأما مملكة الأسباط العشرة التي أقامها يَرُبْعَامُ متخذاً شكيم (نابلس) ثم السامرة (سبسطية) عاصمةً لها ، فقد كانت مسرحاً لأفظع الفجائع ، وما كان يقع فيهـا من اغتصاب ومذابح واستعانة بالأجنبي ، فقد أثار ازدراء الأمم المجاورة دوماً ، فلم تنفكّ هـذه الأمم تطالب بـإبادة بؤرة الفوضى والتمرد تلك . »[2]

تحطم دويلة يهودا (٥٩٧ ق.م.)

بعد ذلك التمدد الخاطف ، أخذ سلطانُ الأشوريين في الزوال ودمـّر الميديون The Medes العاصمةَ الآشورية « نينوا » سنة

---

(١) غوستاف لوبون ، ص ٤٠ .
(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

٦١٢ ق. م. واستغل جوسياه Josiah (٦٤٠ – ٦٠٩ ق. م.) ملكُ يهودا الفرصةَ، فثار للاستقلال، إلا أن الملك نيخو المصري Necho – التوّاق لخلافة الآشوريين – أخمد هذه الثورةَ وضمّ يهودا إلى مملكته . وكان الكلدانيون في بابل يتقدمون بسرعة فاقتسموا إمبراطورية آشور مع الميديين ، وكان من نصيب **نبوخذنصر** (بختنصر) سوريا وفلسطين اللتين غزاهما بسرعة ، بالرغم من تحالف أمراء فلسطين مع المصريين (١) . وغزا نبوخذ نصر مملكة يهودا سنة ٥٩٧ ق. م. وأخذ معه إلى بابل ملكها يواقيم Jehoiakim وعشرةَ آلاف من أهم السكان وكان منهم النبيُّ حزقيال (٢) ؛ بيد أنه أبقى على المملكة اليهودية كتابعة لإمبراطوريته ؛ ولكن الملك زيديكياه Zedekiah قام بثورة ، بالرغم من أنه كان قد أقسم يمينَ الولاء لنبوخذ نصر الذي كان قد أقامه ملكاً على يهودا (٣) . فجاء نبوخذ نصر مرة أخرى وحطّم القدس نهائياً سنة ٥٨٧ ق. م. وسبى كثيراً من سكانها بعد حصار دام ١٨ شهراً (٤) .

« وبعد هذا هاجر من بقي من اليهود الى مصر ، ومنهم النبي

---

(١) ENCY BRIT, op. cit

(٢) Luke, p. 12.

(٣) Buckmaster, Palestine and Pamela, p. 5.

(٤) Ibid, p. 6.

إرمياه »[1] الذي كان قـــد تنبأ بالنهاية الحزينة وحذّر شعبه « ضد السياسة الانتحارية » ، وقد مات هو في مصر [2] .

والحقيقة أن نبوخذنصر لم يحطـّم المملكةَ اليهودية المزعومة في المرة الأولى، وإنما أخذ معه رهينة (حسب الممارسة الآشورية المعتادة) لكيلا يتكرر وقوع ثورة جديدة،ولكنها حين وقعت ثانيةً عاد نبوخذ نصر فحطـّم المدينةَ ويهودا كلية لدرجة أنهـا خلت من السكان [3] .

وبهذا انتهت مملكة يهودا المزعومة بعد أن عاشت نيف و ١٣٠ سنة بعد سقوط أختها الهزيلة إسرائيل .

ويسجّل الكتاب اليهودي الديني « التلمود » أن هذا التدمير لم يكن إلا « عندما بلغت ذنوبُ إسرائيل مبلغَها وفاقت حدودَ ما يطيقه الإلهُ العظيم ، وعندما رفضوا أن ينصتوا لكلمات وتحذيرات إرمياه ... » ، وبعد تدمير الهيكل قـال النبي إرمياه موجهاً كلامه الى نبوخذ نصر والكلدانيين: «لا تظن أنك بقوتك وحدها استطعت أن تتغلب على شعب الربالمختار، إنها ذنوبهم الفاجرة التي ساقتهم الى هذا العذاب . » [4] .

---

(١) Luke, p. 12.

(٢) ENCY BRIT, op. cit.

(٣) Ibid.

(٤) H. Polano (Tr.), The Talmud, Frederick Warne & Co, London, N. D, pp 319 – 320. =

ويؤكد المؤرخ العربي **الطبري** أن حملة بختنصر لم تكن خصيصاً لفلسطين وإنما كانت لإنزال العقاب بملك مصر الذي كان قد رفض إرجاع بعض الفارّين من رعيته ، فغزا بختنصر مصرَ وقَتَلَ ملكَها وسبى أهلَ مصر [١] . كما أن الطبري يذكر أيضاً أنه سبى أهالي شمال أفريقية ، وكذلك سبى من العرب كثيرين وأسكنهم بأنبار « فقيل أنبار العرب ، وبذلك سميت الأنبار ، وخالطهم بعد ذلك النبط » . [٢]

ويتضح أن **السبي** الذي يبكي عليه اليهود كثيراً ويؤكدون بذلك حقهم في العودة (رغم أنهم قد عادوا من بابل كما سيأتي) لم يكن (ذلك السبي والنفي) إلا أسلوباً من أساليب بختنصر المعتادة ، ولم يسلم منه العربُ أنفسهم . ويقول الطبري إنه بعد هذا السبي على يد بختنصر « تفرقت بنو إسرائيل ، ونزل بعضهم أرض الحجاز بيثرب ووادي القرى وغيرها . » [٣]

ولكن بختنصر ارتكب خطأً لم يألفه الآشوريون مع شعوبهم المشاغبة ، فقد « حدثَ تحوُّلٌ في الأسلوب المعتاد ، فإنه لبعض

يراجع للقصة الكاملة : فصل « رواية التلمود عن تدمير الهيكل » ، في كتاب «التلمود — تاريخه وتعاليمه للباحث ، دار النفائس ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٦٦ — ٦٧ — ٦٩ .

(١) تاريخ الطبري ، الجزء الأول ، ص ٥٣٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٦٠ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٥٣٩ .

الأسباب – لعله عدم خصوبة الأرض حول أورشليم – لم يتمّ توطين الأجانب هناك ليحلوا محل السكان القدماء . »[1] هذا بالرغم من أن الإيدوميين العرب كانوا قد حاولوا ، كما سيأتي ، من تلقاء أنفسهم أن يحلوا محل اليهود .

وهنا ينبغي أن نؤكد على حقيقة هامة :

لقد كانت آلام اليهود والفجائع التي أصابتهم على أيدي الشعوب الأخرى ، تعود ، إلى حدّ كبير ، إلى اشتراكهم النشيط في السياسات العالمية حينذاك (مثلما يفعلونه في هذا القرن وقد جنوا ثماره على أيدي هتلر قبيل وإبان الحرب العالمية الثانية بسبب دورهم المقيت في إسقاط المانيا في الحرب الأولى وتحالفهم مع بريطانيا والحلفاء) . فقد تحالف اليهود ، في وقت أو آخر ، مع جميع الأجناس والشعوب التي حكمت العالم القديم أو ذلك الجزء كان اليهود يسكنونه ؛ لقد تحالفوا مع الفرس ، والمصريين القدماء ، والرومان ، والبيزنطيين ، والآشوريين ، والأنباط وغيرهم من الشعوب .

« ولم يكن ذلك الوضع المتوسط غير ذي تهلكة ، فأمة

---

(١) Marlowe, op. cit, p. 11.

إسرائيل الصغيرة إذْ قامت بين نينوى المرهوبة ومصر القوية ، وكانت تستند إلى إحداهما لمقـاومة الأخرى ، كانت تشترك في الصراع في الغالب : فتـُسْحَق فيه نهائياً . »[1]

(١) غوستاف لوبون ، ص ٢٧ .

الفَصْلُ الخَامِسُ

العودة من سبي بابل

٥٣٩ ق.م.

« ... العائدون من بابل هم الذين فشلوا في الحصول على موطىء قدم في تلك البلاد الجديدة . »

جون مارلو

وفي السبي البابلي حَصَلَ اليهودُ على حريات كثيرة وأعطاهم البابليون — المنشغلون في الحروب — مناصبَ مدنية، وبذلك حصلوا على أهمية تفوق عددهم ، « واستطاع عديدون من اليهود الذين كانوا يتمتعون بمناصب إدارية كبيرة لدى البابليين أن يستعطفوا السادة الجدد . وكورش ، الملك الفارسي الأول الذي حكم العراق ، يملك امتياز افتتاح أول وطن قومي يهودي في فلسطين . » (١)

---

(١) Marlowe, Rebellion in Palestine, p. 11.

فالبريطانيون ليسوا هم الذين يملكون براءة اختراع وافتتاح الوطن القومي اليهودي ، وإن كان هناك فرق غير عادي بين همج العصور المظلمة الذين =

فبعد أن انتصر الإمبراطور الإيراني قورش الثاني Cyrus II (؟ — ٥٢٨ ق. م.) على ميديا سنة ٥٣٩ ق. م. ، واحتلّ بابلَ، وأقام أعظم إمبراطورية قامت حتى ذلك العهد : كان من أول أحكامه إعادة يهودا لليهود وبناء الهيكل [١] . « ولكن قليلين من هؤلاء انتهزوا فرصةَ هـذه الإجازة ، والدولة اليهودية التي قامت الآن كانت داخل حدود يهودا . » [٢] وكان كثير من اليهود السبايا قد أعجبتْهم البلادُ الجديدةُ ، ولكن قلة متشددة منهم هي التي عارضت الإندماج وبذلك أنجتْ إسرائيل من الإندثار [٣] .

وقـد ذكر جوزيفوس أن الراجعين من اليهود كان عددهم ٤٢,٠٠٠ ، ويعلّق على ذلك مارلو : « لا بد أن هذا العدد كان يمثل أقلية بالنسبة الى العدد الحقيقي (في بابل) ، وأن هؤلاء (العائدين) هم الذين فشلوا في الحصول على موطىء قدم في تلك البلاد الجديدة . » [٤] إلا أن الذين عادوا واجهوا مشكلةً ،

أعادوا إنشاء الوطن القومي اليهودي على أرض خالية،وبين أصحاب «الرسالة الحضارية » (في ظل الانتداب الذي كان « أمانة في عنق الحضارة ») الذين أعادوا بناء الوطن القومي على حساب وأشلاء الشعب العربي المتمسك بحقوق أرضه في فلسطين .

(١) ENCY BRIT, vol. 17, p. 127.

(٢) Luke, Handbook of Palestine, p, 13.

(٣) Bentwich, Palestine, p. 4.

(٤) Marlowe, p. 12. =

هي أن الإيدوميين قد شغلوا أراضيهم في يهودا[1] ، كما أن حاكم ساماريا كان قد استولى على الجزء الشمالي من يهودا ، وهـذا حال دون إعادة بناء الهيكل من جديد[2] ، (والذي بنوه فيما بعد).

ويروي الطبري عودة بني إسرائيل إلى فلسطين ثانية قائلاً : إن الملك بشتاسب وصل اليه الخبر « عن بلاد الشام أنها خراب ، وأن السباع قد كثرت في أرض فلسطين ، فلم يبق بها من الإنس أحد ، فنادى في بني إسرائيل : إن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع ، وملّك عليهم رجلاً من آل داود ، وأمره أن يعمّر بيتَ المقدس ويبني مسجدها (معبدها) ، فرجعوا فعمّروها.. وأقام بنو إسرائيل بيت المقدس ورُدّ إليهم أمرُهم ، وكثروا بها حتى غلبت عليهم الروم في زمـان ملوك الطوائف فلم يقم لهم بعد ذلك قائمة . »[3]

وطالما بقي داريوس ظلّ يحمي اليهودَ ، رغم أنف معارضة المسؤولين الفرس المحليين في سورية الذين خافوا من أثر هــذه السياسة على الشعوب المجاورة .. « ويبدو أن المسؤولين المحليين

= وهذا هو ما حدث مرة أخرى عندما أعاد ـ أصحاب الرسالة الحضارية ـ إنشاء الوطن اليهودي فلم يرجع إلا يهود البلاد الشرقية حيث لم تكن أحوال اليهود الاقتصادية والسياسية مرضية لهم ، أما يهود الغرب الأغنياء فقد رفضوا العودة . حقاً إن التاريخ ليعيد نفسه !!

(١) ENCY BRIT, op. cit.

(٢) Ibid.

(٣) تاريخ الطبري ، الجزء الأول ، ص ٥٤٠ .

كان يشغلهم أمر إعادة المستوطنين (اليهود) بناءَ أورشليم قلعةً ليتمكنوا من مقارعة الفرس وإرهاب الشعوب المجاورة . وكانوا متزعجين، أيضاً، بسبب الامتيازات الخاصة التي كان عليهم أن يمنحوها إلى هذا الشعب بأوامر من كورش،والتي كانوا ينسبونها، بحنق وبحق إلى النفوذ اليهودي في بلاط كورش » [1] .

ولكن الامبراطور كامبايسيس Cambyses سحب هـــذه الامتيازات بإصغائه إلى رجـاله في سورية ، فتوقف العمل الاستيطاني لعشرة أعوام تقريباً ، إلا أن داريوس الأول أعـاد تلك الامتيازات [2] .

والشعب الذي حاول منع هـذا الاستيطان هم الكوثيون أو السماريون (كعرب فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين) . ولعل هذا هو سبب كراهية وحقد اليهود للسماريين، وهو شعور استمر لعدة قرون إلى أن أصبح السماريون في وضع لا يتمكنون فيه من إلحاق أي ضرر باليهود [3] .

وانتهز اليهود الفرصة بسبب تفشي الحروب الداخليـــة

---

(١) Marlowe, p. 12.

كما حدث ، مرة أخرى ، أيام الانتداب البريطاني حين كان موظفو الادارة البريطانية المحليين (ما عدا اليهود أو المتصهينين) يعادون بشدة السياسة الصهيونية لحكومتهم ، وكان اليهود يفرضون السياسات من لندن .

(٢) Ibid.

(٣) Ibid.

والثورات ، فطالبوا ببناء **الهيكل** (الثاني) وسمح لهم الامبراطور بذلك ، فاكتمل في مارس سنة ٥١٥ ق. م. ، « ولكن اليهود كانوا قد أثاروا في هذه الأثناء ، شك السلطات الإيرانية ، لذلك عارضت أي جهد آخر لتحسين مركز اليهود » .[١] وكان الذين يحكمون يهودا الآن هم « كبـار الكهنة » الذين صكّوا بأسمائهم نقوداً [٢] .

وبعد داريوس خلفه ابنـُه زيركسيس Xerxes الذي استمر في حكمه انتعاشُ الاستيطان اليهودي ، « ولكن المستوطنين (في أورشليم) كانوا يعتمدون حتى الآن، إلى حد كبير ، على مساعدة يهود بابل، ونـَجـَوْا من الذوبان، على الأقل في مناسبتين في عهد زيركسيس ، بمجيء وفدين من يهود بابل » [٣] . وكان رئيس الوفد الأول هو عزرا Ezra الذي أصبح رئيسَ الكهنة بالهيكل . وكان « نحميا » هو رئيس الوفد الثاني ، وهو الذي بـذل جهودَه لإقامة التنظيم العسكري لليهود المهدّدين من الكوثيين (السامريين) والشعوب المجاورة الأخرى [٤] .

---

(١) ENCY BRIT, op. cit.

(٢) Ibid.

(٣) Marlowe, pp. 12 – 13.

(٤) Ibid, p. 13.

وكان نحميا قد وزع الأسلحة على اليهود .. جاء في سفر نحميا (الأصحاح الرابـع الآية ١٧) « الكل حمل السلاح بيد وبنى باليد الأخرى » ..
ونحميا هو الذي أعاد بناء أسوار القدس وحصنها :

Buckmaster, pp. 8 – 9.

« ويبدو أن عزرا ونحميا تمكنا من تحويل مستعمرة ، من نوع : مؤسسة خيرية – دينية يديرها يهودُ بابل ، الى دولة تحكم نفسَها ذاتياً وتساعد نفسَها بنفسها ، والتي بدأت منذ ذلك الوقت تنطلق على خطوطها هي ، حرةً مستقلة عن مساعدة بابل » [1] .

وتعرضت بعضُ أجزاء فلسطين للتدمير سنة ٣٤٣ ق. م، حين حاول أرتاكسركسيس الثالث Artaxerxes III غزو مصر، وكان اليهود قد فقدوا عطف الفرس في عهده واحتل الجنرال الفارسي باجوسيس Bagoses القدسَ ونجّس الهيكل . وبعد موت أرتاكسركسيس خفّف خليفتُه داريوس الثاني القيودَ عن اليهود ، وفي عهده غزا فلسطين الإسكندر المقدوني (عام ٣٣٢ أو ٣٣٠) وكانت فلسطين بالنسبة اليه ممراً إلى مصر، وقد ترك اليهودَ بدون أن يمسهم في دينهم أو تقاليدهم مخافةَ أن يؤيدوا الإيرانيين ، وقد ظل رئيس دويلة اليهود هو الكاهن الأكبر [2] ، واستمرت المستعمرة اليهودية تحت حماية وعطف الاسكندر الأكبر . [3]

---

(١) Marlowe, p. 13.

(٢) ENCY BRIT. op. cit.

(٣) Marlowe, p. 13.

الأنباط العرب [1] يغزون فلسطين (٣٠٠ ق. م. تقريباً)

لقد اتضح مما سبق أن العرب هم أصل سكان فلسطين، وأن أجداد عرب اليوم قد لعبوا دوراً رئيسياً في تنصيب داود وابنه سليمان عليهما السلام على العرش ، وظلوا عنصراً فعالاً في تاريخ البلاد ، وكانت لهم ممالكهم شبه المستقلة كالإيدومية والمؤابية والعمونية ،وكذلك احتفظ الفلستينيون فيغرب جنوب فلسطين (غزة) باستقلالهم في كل الظروف .

هناك حقيقة تاريخية كبرى قلما أتيح لها الظهور ، وهي أن العرب قد حكموا فلسطين بالفعل قبل دخول الإسلام اليها بثمانية قرون ، وهؤلاء العرب [2] هم الأنباط المشهورون الذين كانوا يسكنون شمالي الجزيرة العربية ، متخذين من « البتراء » Petra عاصمة لهم ، ونسبة إليهم أطلق اسم « نبطي » Nabatene

---

(١) الأنباط : « والنبط ، بنو نبيط بن ماش بن إرم بن سام بن نوح . وأهل الجزيرة والعال من ولد ماش بن إرم بن سام بن نوح. » تاريخ الطبري الجزء الأول ص ٢٠٧ .

ويقول عنهم الرحالة سترابو (Strabo, XVI, 4.) : « شعب وقور، وقادر على الاكتساب ، ومنظم وعاكف تماماً على التجارة والزراعة . »

ENCY B'<IT, vol. p. 57.

(٢) وهم عرب خالصون كما أكد ذلك « نولدكه » وقد احتفظت لغتهم العربية بنقاوتها بدرجة عظيمة ، وقد تطورت الكتابة العربية من خط الرقمة النبطي قبيل الاسلام (دائرة المعارف الاسلامية المجلد الثالث ص ٨٠٢) .

على كل المنطقة الحدودية فيما بين سورية والجزيرة العربية ابتداءً من الفرات حتى البحر الأحمر [١] .

وقد ظهر النبطيون كعنصر فعال في السياسات السورية حينذاك في سنة ٣١٢ ق. م. حين فشل أنتيجونوس الأول Antigonus I في معركة ضدهم [٢] رغم إرسال حملتين ، ولم يتمكن أحد من استعبادهم الكامل سواء الآشوريون أو الميديون أو الفرس أو المقدونيون [٣] . وتوجد في التوراة إشارة إلى هذا الشعب باسم نبايوث Nebayoth [٤] . وكان الأنباط رعاة مواشي وتجاراً ، واكتسبت عاصمتهم البتراء أهمية غير عادية بسبب كونها نقطة اتصال بين الجزيرة العربية وبين مصر وسورية وغيرها. وأصبحت البتراء غنية جداً [٥] . ومنذ زمن قديم جداً كانوا قد حصلوا على مركز الاحتكاريين في تجارة الشرق الأدنى [٦] ، وكانت قوافلهم تخرج إلى معظم أماكن العالم القديم حتى روما [٧] . وتثبت الآثار الكثيرة الموجودة حتى اليوم أن البتراء كانت تتمتع بحضارة راقية ، ففي هذه الآثار

---

(١) ENCY BRIT. vol. 16, p. 57.

(٢) Ibid.

(٣) Encyclopaedia of Islam. vol. III, p. 801.

(٤) مثلاً : التكوين ، الاصحاح ٣٦ : ٣ .

(٥) UJE, Vol. 8, p. 471.

(٦) Encyclopaedia of Islam, op. cit.

(٧) المصدر السابق .

توجد القبور والمعابد والشوارع والجسور ومجاري المياه وغيرها من الأعمال العامة[١]، ومعظم أجزاء المدينة منحوتة في الصخور وواجهات بناياتها تحمل نقوشاً جميلة .

لقد أيّد الأنباطُ في أول الأمر الدولةَ المكابية اليهودية ، خصوصاً بني سُلَيم اليهود المعروفين بالسُّلاميين ، للتحرر من نير الآشوريين. ولكن حين استقلّت الدولة اليهودية وقويت[٢]: عارضها الأنباط الذين عادوا فتحالفوا مع الملك اليهودي الكزندرجانّيوس (١٠٣ – ٧٦ ق. م.) . وقد برز الأنباط كقوة في السنين التالية لسنة ٢٠٠ ق. م. [٣] ، حيث استغلوا زوال السلوقيين فقاموا بتوسيع أراضيهم حتى شرقي الأردن ، وغزوا حوران (سنة ٨٨ ق. م.) [٤] . وكان الأنباط قد هاجموا سنة ٣٠٠ ق.م. (تقريباً) مواطن الإيدوميين (إيدومية) وحلوا محلهم في شرقي فلسطين وجنوبها ، وغزوا أراضي موآب وعمون وتوغلوا حتى الشمال[٥] ، وشملت مملكتُهم النبطية أراضي فلسطين الجنوبية والشرقية وكذلك أراضي إيدومية وشرقي الأردن ، واحتلوا دمشق مرتين : المرة الأولى في سنة

---

(١) UJE, op. cit.

(٢) UJE, vol. 8, p. 79; Encyclopaedia of Islam. op. cit.

(٣) Ibid.

(٤) ENCY BRIT, vol. 16, p. 57.

(٥) Luke, p. 13.

٨٥ ق. م. ، ثم فيما بين ٣٤ — ٦٢ ق. م. ، وربما في الفترة التي تخللت بين هذين التاريخين أيضاً [١] .

ورغم عدة حملات رومانية ضد الأنباط لم ينجح الرومان في طرد الأنباط من دمشق فاحتفظ بها الملك النبطى حريثت (وتحريفه الروماني Artas) . وظل الأنباط مزدهرين كحلفاء للرومان في القرن الأول الميلادي بأكمله [٢] ، هذا رغم أنهم دفعوا الخراج للرومان سنة ٦٣ ق. م. واتسعت حدودهم حتى شملت شواطىء الجزيرة العربية خصوصاً حول البحر الأحمر [٣] ، فوصلت حتى مدينة «مدين» القديمة . وعلى ساحل البحر الأحمر أسس الأنباط مدينة َحوَرَا التي تسمى الآن بالحوراء ، وتوغلوا داخل الجزيرة العربية حتى وصلوا الى « العلى » و « الحجر » على حدود الحجاز [٤] . وتوغل الأنباط في الحدود المصرية حتى وصلوا الى دلتا النيل الشرقي ، كما أثبتت ذلك آثار حفريات تل الشقافية في وادي توميلات [٥] .

وظل الأنباط في حرب دائمة مع اليهود ، فقد قاتل الملكان النبطيان مالكوس الأول وعبيداث الثاني ضد هيرود (٣٧ —

---

(١) Encyclopaedia of Islam, op, cit, also vol, I, p. 309.

(٢) ENCY BRIT, op. cit.

(٣) Ibid.

(٤) Encyclopaedia of Islam, op. cit. p. 801.

(٥) Ibid.

٤ ق. م.) ، ثم انتصر الملك النبطي خريثت الرابع على هيرود انتيباس (٤ ق. م. — ٣٩ م.) وكان الأنباط يساعدون الرومان ضد اليهود، وبذلك اكتسبوا كراهية اليهود [١] . « وكان يمكن أن يظل الأنباط متراساً بين الرومان وبين العصابات الوحشية في الصحراء ، لكن جشع تراجان ، القصير النظر ، أنهى البتراءَ وحطـّم القومية النبطية » . [٢] وكان هذا سنة ١٠٦ م. ، حين اجتاح تراجان معظم أراضي الأنباط وضمها إلى الامبراطورية الرومانية باسم « الولاية العربية » Provincia Arabia . ولم تبق في أيدي الأنباط سوى أراضي صحراوية قاست من الخراب الاقتصادي سنة ٢٠٠ م. حين أصبح التدمريون — عرب آخرون في شمالي سوريا — يسيطرون على التجارة [٣] .

ومهما كانت النهاية الحزينة التي انتهت اليهـا مملكة الأنباط العرب على أيدى الرومان والتي استأنفها خلفاؤهم ، فالأمر الذي يجب تأكيده هنا هو أن العرب قـد حكموا فلسطين — الجنوبية والشرقية مع شرقي الأردن — وقضوا على الممالك العبرية وقامت مملكتهم « لأكبر فترة » [٤] بالقياس الى أي من الممالك الفلسطينية

(١) UJE, vol. 8. p. 79.

(٢) ENCY BRIT, op. cit.

(٣) Encyclopaedia of Islam, vol. III, p. 802.

وبقايا الأنباط اليوم هم سكان جوهام التي تسمى اليوم بالحويطات. وتوجد آثارهم في سوريا وخابور وفي العراق وعمان والبحرين . (المصدر السابق) ،

(٤) UJE, vol. VIII, p. 354.

الأخرى ، وبذلك أضافوا فضلاً هاماً الى تاريخ فلسطين العربية ، رغم أن هذا التاريخ مجهول للعرب أنفسهم بسبب إهمالهم وعدم اهتمامهم ، خصوصاً ، بتاريخهم القديم الذي لا تدانيه في العظمة إلا تواريخ أمم قليلة في العصور القديمة .

فلسطين تحت حكم السلوقيين ٢٠٠ ق. م. — ٦٣ ق. م. :

الثورة المكابية — ١٦٧ ق. م.

والآن نستأنف تاريخ الحكم المقدوني في فلسطين والذي انتقل الى بطليموس بعد وفاة الاسكندر . وبطليموس Ptolemy هذا ، الذي ورث فلسطين وجزءاً كبيراً من فينيقية ، قد أسس دولةَ البطالمة في مصر التي حكمت مصر ثلاثمائة سنة تقريباً .

لقد استمر حكم البطالمة على مصر حتى سنة ٢٠٠ ق. م. ، ثم انتقل الى السلوقيين عقب معركة بين الامبراطوريتين الشقيقتين عند الجليل . وكانت فلسطين قد انتعشت في عهد البطالمة وتأثرت بحضارتهم [١] .

وضعفت الإدارة السلوقية في فلسطين بسبب المساحة الشاسعة من الأراضي التي كانت هذه الدولة تحكمها . ولا يوجد دليل على أن السلوقيين قد ظلموا أهلَ البلاد ولكنهم أرادوا تقريبهم من الأساليب اليونانية في الحياة ، ويمكن الافتراض بأن الحكم السلوقي

---

(١) ENCY BRIT, vol. 17, p. 128.

كان شعبياً في البلاد .. [١] ولكن رغم هذا وقعت ثورة اليهود الكبرى – ثورة المكابيين Maccabees في العصر السلوقي. وكانت لهذه الانتفاضة أسبابُها . فمنهـــا أن كبير وزراء السلوقيين « هيليودوروس » Heliodorus نهب كنوزَ الهيكل اليهودي عقب هزيمتهم أمام الرومان سنة ١٨٩ ق. م، وتغريمهم بدفع تعويض سنوي عن الحرب قدره خمسة عشرة تالنْت [٢] . ومن هذه الأسباب أيضاً أن أنطوخيوس حاول صرف اليهود عن دينهم فعيّن كاهناً كبيراً إغريقياً (وثنياً) Philhellenic high priest في القدس ، ولكن لا يوجد دليل على أنه اضطهد اليهود المقيمين في مختلف مدنه [٣] .

وفي هذه الفترة كانت الحضارة اليونانية قد أثّـرت في اليهود، حتى حلّت اللغةُ الآرامية محل العبرية ، وأصبحت اليونانية لغة الطبقة المثقفة ، ونشأت في اليهود جماعة تناصر اليونانيين، وهذه الجماعة تمكنت من الوصول الى الحكم بقيادة كبير الكهنة اليهودي جيسون Jason [٤] ، وسيطرت بذلك على الهيكل، واصطبغت الطبقة العليا من سكان القدس بالصبغة الهيلينية ، وأقامت هـذه

---

(١) Ibid.

(٢) Talent : وزنة فضة تساوي ٢٥٠ أو ٣٤٠ جنيهاً أو وزنة ذهب تساوي عشرة آلاف جنيه تقريباً .

(٣) Ibid.

(٤) Luke, p. 13; Buckmaster, p. 10.

الطبقة في القدس معهداً سُمي Ephebic Institute ، وجمنازيوم، وكانت هـذه الطبقة على استعداد لتقبل مراعاة راديكالية أقلّ لليهودية وارتبطت بالولاء للعرش اليوناني [١] .

وفي سنة ١٧٠ (أو ١٦٩ ق. م.) مرّ أنطيوخوس بالقدس في طريقه الى مصر ونهب كنوز الهيكل كلها . وبعد سنتين عند اندحار أنطيوخوس أمام الرومان في مصر قام أحـد رجاله بتدمير القدس وبنى فيها قلعـة سميت « أكرا » Akra « التي أصبحت رمزاً لاستعباد يهودا [٢] » ، فقامت ثورة من اليهود غير المندمجين مع اليونانيين ، بقيـادة الكاهن متّى ثياس Mattathias ، ولكن أنطوخيوس قهرها بعنف [٣] ومنع الختان واحترام السبت ، وكان الجزاء هو الاعدام في حالة عدم مراعاة هـذه الأحكام [٤] . ومضى أنطوخيوس في إثارة اليهود فوضع في الهيكل المقدس في مكان مذبح يهوه — في ١٥ ديسمبر ١٦٧

---

(١) ENCY BRIT, op. cit.

مفارقة مدهشة هـذه التي توجد بين سكان المدن وسكان القرى والطبقات الدنيا والطبقات العليا والتي وجدت حتى في ذلك العهد المغرق في القدم.

(٢) Ibid.

(٣) Luke, p. 14

(٤) ENCY BRIT, op. cit;

Buckmaster, pp. 10 – 11.

« وفي أول الأمر بدا أن سياسة أنطوخيوس ناجحة ... »

Quoted from Kent, History of the Jewish People.

ق. م. « مذبحَ زيوس » الذي سماه اليهودُ « رجسَ الخراب » Abomination of desolation وحطّم مرة أخرى أسوارَ القدس وبيوتها [١]. وبعد هذا ثار اليهود المناهضون لأنطوخيوس وقاد الثائرين أحد أبنــــاء متى ثياس وهو جوداس مكّابيوس Judas Maccabaeus (مات سنة ١٦١ ق. م.) .

ولكن يجب التأكيد على أن المقاومة لم تأتِ إلا من جزء من الشعب [٢] ، فيجب وضع الطبقة المندمجة مع اليونان في الاعتبار — كعنصر ثالث — خلال سني الثورة وكذلك حتى سقوط الأسرة المكّابية [٣] .

واستمرت المقاومة المكابية لمدة ثلاث سنوات، واستطاعت في نهايتهـــا أن تُطهِّر الهيكل في ديسمبر ١٦٥ ق. م.[٤] رغم أن قلعة أكرا ظلت في أيدي السلوقيين. وهنا مات أنطوخيوس Antiochus Ephiphanes ، وأصيبت الدولة السلوقية بالقلاقل الداخلية ، وظهر كثيرون يطلبون العرش ، « وتمّ شراء كبار الكهنة اليهود وتم رشوتهم بمعرفة الملوك وأمراء سورية » [٥] .

وبسبب هذا التطور المفاجيء — موت الامبراطور والقلاقل

---

(١) Buckmaster, p 10.

(٢) ENCY BRIT, op. cit

(٣) Ibid.

(٤) Ibid.

(٥) ENCY BRIT, op. cit.

التي تبعتـه ومحاولة أدعياء الوراثة استقطاب اليهود واسترضائهم كحلفاء – تمكن جوداس مكابيوس من الاحتفاظ بالسيطرة على زمام الأمور وأقام حكماً وراثياً لأسرته . وفي سنة ١٦٣ ق. م. تمكن من الوصول الى اتفاقية مع الوصي السلوقي ، حصل اليهود بمقتضاها على الحرية الدينية .

وتمتع اليهود ببعض الحرية في عهـــد المكابيين الذين حكموا ككبار الكهنة حكماً دينياً (ثيوقراطياً) ، وكان الحاكم يلقـّب بـ « كبير الكهنة وموحـّد اليهود» High Priest & the Uniter of the Jews [١] وسرعان ما سمى المكابيون أنفسهم بالملوك[٢]، بالرغم من أنهم كانوا تابعين ، ويدفعون الخـراج للسلوقيين ، الذين عادوا فأقاموا العبادةَ الوثنية من جديد الى جانب العبادة اليهودية ، بل نصبوا أحدَ السلوقيين في منصب كبير الكهنة ! « وهكذا وضعوا بذور ثورة جديدة » [٣] . وبرز جوداس في الميدان ، وانتصر على الجنرال السلوقي نيكانور Nicanor وقتله، وخلال شهرين جاء الجنرال بكـّايدْسْ Bacchides الذي تحصن على مقربة من القدس وقتل جوداس سنة ١٦١ ق. م.

وتسلم الحكم من بعد جوداس أخوه جوناثان (١٦١ — ١٤٣

---

(١) Luke, p. 14.

(٢) Ibid.

(٣) ENCY BRIT, op. cit, p. 129.

ق. م.) الذي عضّد مركزه بالاستفادة من الخلاف في الأسرة السلوقية [1] . وبعد موت جوناثان ، تولى سيمون (١٤٣-١٣٥ ق. م.) الحكم ، وقـــد أعفى الامبراطور ديمتريوس الثاني Demetrius II اليهود من دفع الضرائب سنة ١٤٣ ق.م. بناء على طلب سيمون، كما أنه أعطى لقبَ (حاكم) لسيمون ، فاعتبرت تلك السنة (١٤٣) عصراً جديداً وأرّخت الوثائق الرسمية بإسمه وبسنة حكمه ، واتفق اليهود على اعتبار سيمون ملكهم وأن يتولى الحكم من بعده ورثته ، وذلك حتى ظهور « نبي معتمد ». وبهذا أنهى سيمون الحكم التقليدي لكبار الكهنة وأسس حكماً ملكياً ، واعترف الملك السلوقي بهذا التطور ، وأعطى سيمون حق صك النقود بإسمه. وكان عهد سيمون عهد الرخاء والسلام. ثم تولى الحكم ابنه جون هيركانوس John Hyrcanus ، وفي عهده غزا فلسطين أنطيوخوس سيدتس Antiochus Sidetes آخر الملوك العظام في الأسرة السلوقية وانتهى الغزو بعقد هدنـة مع هيركانوس [2] . وبعـــد موت « سيدتس » غزا هيركانوس : ساماريا ، رغم معارضة الملك السلوقي الجديد .

ومن أهم أحداث عصر هيركانوس أنـــه تخاصم مع رجال

---

(١) Ibid.

(٢) Buckmaster, p. 12.

الدين اليهود — الفريسيين — وساعد الصادوقيين أعداء الفريسيين [١] (الذين حرّفوا الدين الموسوي) .

ثم جاء الاسكندر جانّيوس Alexander Jannaeus (١٠٣ — ٧٦ ق. م.) وهو أطول الحكام اليهود عصراً ، واشتهر بكثرة الحروب ، وشمل حكمه شرقيَ الاردن الذي سماه اليهود پيريا Perea [٢] وتوغل جانيوس الى الساحل أيضاً. ولعل حدود الدولة اليهودية في عصره كادت أن تلامس حدود داود وسليان . وقد صكّ جانيوس نقوده باسم « الملك الاسكندر » بالعبرية واليونانية . والاسكندر أيضاً — مثل سيمون — كان من أشد خصوم الفريسيين . وحكمت من بعده أرملته سالوم الكزندرا Salome Alexandra التي غيّرت سياسةَ الحكم واتخذت من الفريسيين مستشارين لها. وعند موتها سنة ٦٧ ق.م. تخاصم إبناها أريستوبولوس Aristobulus وهيركانوس الثاني : على الحكم . وقد ساعد أنتي بيتر Antipater — الحاكمُ غير اليهودي لإيدومية العربية — هيركانوسَ في الحصول على مساعدة الأنباط العرب ضد أخيه أريستوبولوس . وبمساعدة القوات

(١) يراجع للفريسيين والصادوقيين كتاب الباحث ، « التلمود ، تاريخه وتعاليمه » ص ٣١ — ٣٢ .

(٢) UJE, vol. 8. p. 354.

العربية استطاع هيركانوس وأنتي بيتر السيطرة على الأراضي العليا .

وحين طلب من بومبي التوسط في أمر الأخوين استطاع أنتي بيتر ، ببراعة ، إقناعه لصالح هيركانوس [1] . وبهـذا اشترك العرب الأنباط مرة أخرى في تقرير مصير البلاد ، وفي حقيقة الأمر فقد تحول هـذا العمل إلى إنهاء السلطة اليهودية الإسمية والرمزية نهائياً من مسرح فلسطين ، كما سيأتي .

---

(١) UJE, Article : Antipater.

الفصل السادس

سنوات السيادة الرومانية

ونهاية دويلة يهودا ٦٣ ق.م — ٧٠ م

« وحيّرت لهجةُ الشعب اليهودي الفارغةُ دولةَ رومة العظمى نفسها ، فاقتصرت على احتقاره مع أنها كانت تعلم قدرَتها على سحق وكر المتعصبين المشاغبين ذلك ، عند الضرورة . ولم تُعَتِّم فوضى ذلك الشعب الصغير المزعج وفسادُه وضوضاؤُه أن استنفد صبر تلك الدولة العظمى فعزمت على إبادته لكيلا تسمع حديثاً عنه . »

غوستاف لوبون

اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، ص ٤٢

بينما كان إبنا جانيوس يتخاصمان على أرض فلسطين ، كان پومبي العظيم يغزو أراضي السلوقيين ، ويعيد ترتيبها ؛ ولذلك جاء يعيد ترتيب الخريطة السياسية لفلسطين أيضاً ، سنة ٦٣ق.م ؛

وأصبحت المستعمرة اليهودية تُعرف منــذئذ باسم « يهودية » Judaea .

ويذكر محرر دائرة المعــارف البريطانية أن الأنباط العرب كانوا عــاملا رئيسياً من عوامل تدخل پومبي في فلسطين [١] ، ولكنه لم يشرح كيفية الأمر . ولعل ذلك بسبب تدخل الأنباط في شؤون فلسطين .

إلا أن الشيء الذي اقتضى مجيء پومبي إلى القــدس هو أن أريستوبولوس لم يمتثل لوساطة پومبي بل رجع إلى القدس يستعد للثورة [٢] .

وقد نزع پومبي لقب (الملك) الذي انتحله حكامُ القدس في نهاية العهد السلوقي ، ثم نصب « هيركانوسَ الثاني » كبيرَ الكهنة .

وَقتَل پومبي كثيراً من اليهود المشاغبين ، وأخــذ معه أريستوبولوس إلى رومــا ، وحطم أسوار القدس ، وكان هــذا نهــاية الدولة اليهودية [٣] . وبَترَ پومبي الأجزاءَ الأخرى من أيدي اليهود ونقلها إلى الحاكم الجديد الذي أقامَه في سوريا [٤] . واستمرت الأسرةُ المكـّابية في ظل الرومان .

وفي سنة ٤٠ ق. م هــاجم الفرس البلاد . وفي هذه الأثناء

---

(١) ENCY BRIT. vol. 16, p. 57.

(٢) Buckmaster, Palestine and Pamela, p. 13.

(٣) Buckmaster, p. 13.

(٤) ENCY BRIT, vol. 17, p. 129.

كان حاكم إيدومية غير اليهودي «أنتي بيتر» الأجنبي الجنسية[1]، الذي سبق أن ساعد اليهودَ في الحصول على مساعدة الأنباط، كان قـــد زاد سلطانـُه كثيراً، لدرجة أن هيركانوس — كبير الكهنة اليهودي — أصبح غير ذي أهميـة. فأعطى «سيزار» (قيصر) إلى أنتي بيتر المواطنيةَ الرومانية ومنحه لقب «حاكم يهودية» Procurator of Judaea سـنة ٤٧ ق. م، ونصب ابنَيْ أنتي بيتر: «فزائيل» Phasael حاكماً على القـــدس، و «هيرود» Herod حاكماً على الجليل (شمالي فلسطين حيث كانت إسرائيل). وقد قُتل أنتي بيتر في القدس على يد اليهود.

والأخ الثاني لهيركانوس، «أنتي جونوس»، الذي كان يكافح للحصول على عرش القدس، اتصل بالفرس وجاء مع جيشهم[2] وحـــاز على ثقتهم فنصبوه ملكاً على أورشليم وكبيراً للكهنة — وهو المنصب الذي ظلّ الحكام المكّابيون يحتفظون به في حكمهم الثيوقراطي.

وانتحر فزائيل، وهرب الأخ الثاني «هيرود» إلى رومـا يستصرخ حلفاءَه. واستمر أنتي جونوس بمساعدة الفرس يحكم أورشليم ثلاث سنوات حكماً مضطرباً، إلا أن اليهود رحّبوا به بسبب انتمائه إلى المكّابيين، ورفضهم أسرة أنتي بيتر — التي كان يمثّلها هيرود — لأنها كانت غير يهودية. والحقيقة أن أنتي

---

(١) Buckmaster, op. cit.

(٢) Ibid.

بيتر هذا كان قد قَبِلَ اليهوديةَ مُجْبَراً [١] ، للاحتفاظ بالحكم ولاسترضاء اليهود .

وفي روما أصدر مجلس الشيوخ Senate قراراً بتعيين هيرود ملكاً على يهودية سنة ٤٠ ق. م ، ورجع هيرود إلى فلسطين سنة ٣٩ ق . م ، وعقب ذلك بسنتين استطاعت القوات الرومانية التي أتت مع هيرود طرد الفرس « الذين ظلت لهم شعبية كبيرة في فلسطين » [٢] . وقَتَلَ هيرودُ ، حين دخوله القدس بعد حصار خمسة شهور ، عدداً لا يُحصى من سكانها [٣] . وتزوج هيرود من إحدى بنات أسرة أنتي جونوس ، إلا أنه قَتَلَ هذا الأخيرَ شرَّ قتلة حين وقع في أيديه [٤] ، وكان ذلك بضرب رأسه بالفأس ، وكانت هذه أول مرة يُنزِل فيها الرومان مثل هذا العقاب بملك ما [٥] . « ومجيء هيرود التابع للرومان ، والإيدومي غير اليهودي : أسبغ على فلسطين سلاماً لم تنعم به حتى في أيام الاستقلال » [٦] .

وقد اتسم عصر هيرود الطويل (٣٧ ق . م — ٤ ق . م)

---

(١) UJE, Article; Antipater.

(٢) ENCY BRIT, op. cit. p. 129.

(٣) Buckmaster, p. 15.

(٤) ENCY BRIT, op. cit.

(٥) UJE, vol. I, p. 336.

(٦) ENCY BRIT, op. cit p. 130.

بالرفاهة العامة ، واستطاع هيرود استعادة كل الأراضي التي كان پومبي قد استولى عليها ، ونظّم الإدارة على النمط الهيليني[1]. وكان هيرود من أنصار الرومان الذين كان يدين لهم في ارتقائه عرشَ أورشليم ، وكان ضد القومية اليهودية وكان اليهود يكرهونه للسبب ذاته[2].

وقد زارت الملكة المصرية كليوباترا القدس في سنة ٣٤ ق . م حين رجعت من الفرات حيث صحبت مارك أنطوني .

وبعد موت هيرود عادت الفوضى إلى البلاد بسبب كثرة أبنائه من زوجاته العشر ، فأقام الرومان حكماً مباشراً على البلاد . وقرر أغسطس سنة ٣ ق . م توزيع البلاد على ثلاثة من أبناء هيرود ، فأعطى حكم يهودية وسامارية وإيدومية (فلسطين الوسطى والجنوبية) إلى أرشيلاس Archelaus والجليل وشرقي الأردن إلى أنتيباس Antipas ، وأعطى حكمَ المنطقة الواقعة بين ديكاپوليس ودمشق إلى فيليب تراكونيتيس Philip Trachonitis . واستمر فيليب حتى سنة ٣٤ م ، واستمر أنتيباس حتى سنة ٣٩ م ، أما أرشيلاس فقد مات سنة ٦ م . وبعد موته نقلَ الرومانُ حكم فلسطين الوسطى والجنوبية إلى أيدٍ رومانية . وكان من هؤلاء الحكام الرومانيين

---

(١) Ibid.

(٢) Luke, p. 14.

بيلاطس Pontius Pilate (٢٦ – ٣٦ م) الذي وقعت في عهده المحاولة اليهودية لصلب سيدنا المسيح عليه السلام .

وعند نهاية عهد بيلاطس عاد الحكم ثانية إلى أسرة هيرود، فاستلم زمام الحكم هيرود أجريبا الأول Herod Agrippa I الذي كان يدفع الخراج للامبراطور الروماني جايّوس Gaius .

وعند موت هيرود أجريبا الأول انتقل الحكم من جديد، ونهائياً، إلى الرومان الذين اعتبروا فلسطين إقليماً رسمياً لهم [١]. وبذلك انطفأت آخر شمعة للسيادة اليهودية الصورية التي كانت أسرة هيرود – اليهودية نفاقاً – تمارسها .

والحقيقة أن السيادة اليهودية الاسمية كانت قد انتهت نهائياً مع سقوط أنتي جونوس، آخر مكّابي حكم أورشليم سنة ٤٠ ق. م ؛ هذا مع أن الدويلة اليهودية التي قامت بعد مجيء اليهود من بابل إنما قامت كتابعة للدول الأخرى سواء الفرس أو اليونانيين الهيلينيين [٢] الذين كانوا قد نحتوا لأنفسهم إمبراطورية من أجزاء الإمبراطورية الفارسية .

وخلال حكم هيرود أجريبا الثاني كان اليهود يضغطون عليه حتى اضطر الحاكم الروماني في سورية أن يرسل قوات إضافية لتخفيف وطأة الضغط اليهودي في أورشليم [٣] .

---

(١) ENCY BRIT, op. cit.

(٢) Bentwich, Palestine, p. 5.

(٣) ENCY BRIT, op. cit.

حمــــلة تيتوس

جـــــاء فسباسيان Vespasian — الذي أصبح إمبراطوراً فيما بعد — إلى فلسطين سنة ٦٧ م ، مع ابنـــه تيتوس Titus وجيشٍ بلغ تعداده ستين ألف رجل ، وغزا الجليلَ ، وبعـــد ثلاث حملات أخضع يهوديةَ .

وكان مجيء تيتوس سنة ٧٠ م بسبب ثورة ضد رومـــا [١] ففتح أورشليم ، ودمّر الهيكلَ ، على الرغم من أن **الروايات تسجل أن تيتوس أمر بالمحافظة عليه**[٢] . ولم يكن هذا إلا بعد « ثورة الأعوام الخمسة » (٦٦ — ٧٠ م) [٣] .

---

(١) Buckmaster, p. 16.

(٢) ENCY BRIT. op. cit.

يسجل الطبري هذه الواقعة كما يلي :

« وإن ططوس بن إسفسيانوس (فسباسيان) ملك رومية غزا بيت القدس بعد ارتفاع عيسى بن مريم بنحو من أربعين سنة ، فقتل من في مدينـــة بيت المقدس ، وسبى ذراريهم وأمرهم فنسفت مدينة بيت القدس حتى لم يترك بها حجراً على حجر . »

تاريخ الطبري ، الجزء الأول ، ص ٥٨١ .

وفي مكان آخر يقول :

«وجه إسفسيانوس ابنه ططوس إلى بيت المقدس حتى هدمه وقتل من قتل من بني إسرائيل غضبا للمسيح . »

نفس المصدر ، ص ٦٠٦ .

(٣) Bentwich, op. cit, p. 7.

« وكانت فلسطين قد أصبحت خراباً ، ولم يعد للحاضرة اليهودية من وجود ، وعلى خرائبها السوداء عسكرَ فيلقٌ روماني . وقد أُزيل الهيكل المركزي من الوجود ، وعُرضت أقدس أوانيه وكتبه ، في ساحة روما ، تعبيراً عن الانتصار[١] ... »

وفي سنة ٧٣ م كانت كل أنواع المقاومة قد انتهت ، وأطلق الرومان اسم « يهودية » على كل فلسطين باعتبار إطلاق الجزء على الكل ، وأصبح يديرها قائدُ الفيلق الروماني السادس[٢] . « ... وعقب تدمير أورشليم لم يتخذ الرومان الغزاة وسائل قمعية خاصة ، بل على العكس من ذلك ، حاولوا أن يكسبوا اليهودَ كرعايا ، وذلك باستخدام الرفق الذي كان قد أثْبَتَ نجاحَه في قضية الشعوب الأخرى التي تمّ إدخالها إلى الامبراطورية . ولكنهم (الرومان) حاولوا ذلك بدون اللجوء إلى النفوذ العازل للحاخامية . وقامت انتفاضات صغيرة هنا وهناك ، ورغم أنها أُخمدت بسهولة ، وكانت إحداها تلك التي أخمدها تراجان ، إلا أنها أظهرت للرومان أنه وجب عليهم أن يعاملوا شعباً مشاغباً ومضايقاً . وفي النهاية قرر هادريان Hadrian محقَ هذه القومية اليهودية العنيدة . وأصدر مرسوماً يمنع بمقتضاه قراءةَ القانون (التوراة) واحترامَ السبت وسنّةَ الختان ؛

---

(١) Ibid, pp. 7 – 8.

(٢) ENCY BRIT, op. cit.

وعَقَــد العزم على تحويل أورشليم المدمَّر نصفُها إلى مستعمرة رومانية [1] » .

والحقيقة أن هادريان لم ينتهِ إلى هذا الحل إلا بعد أن فعل ما في وسعه لاسترضاء اليهود . فالمؤرخ اليهودي هيامسون يخبرنا **بأن هادريان كان قد سمح لليهود باعادة بناء الهيكل** [2] . وهو يخبرنا كذلك أن هادريان كان قد قرر خلال زيارته بناء أورشليم – ولكن كمدينة وثنيــة كما يقول هو – ولذلك خاف اليهود من إزالة دينهم ، واستعدوا للثورة وأخفوا استعدادهم حتى غـادر هادريان سوريا [3] .

ثورة باركوخبا (١٣٢ – ١٣٥ م)

جاءت هذه الانتفاضة في صورة ما يسمى بـ « ثورة بار كوخبا » Bar Cochba نسبة إلى اسم قائد الحركة « بار كوخبا » أي « ابن النجم » . ولا يعرف أصل هـذا الرجل الذي اسمه الحقيقي هو « سيمون » ، إلا أنـه حصل على اعتراف بأنـه « المسيح » من جانب أقوى حاخام في ذلك العصر « أكيبا بن يوسف » ؛ واجتمع تحت لوائه مائتا ألف يهودي ، هجموا على القدس واحتلوه ، ثم

---

(١) Ibid; Buckmaster, p. 16.

(٢) Hyamson, Palestine: the Rebirth, p. 4.

(٣) Ibid.

احتلوا حاميات ومراكز رومانيـة أخرى في مختلف أنحـــاء البلاد [١] .

« إن جيش باركوخبا جَذَبَ متطوعين من يهود كل البلاد . والذين لم يتمكنوا من الخدمة شخصياً ، أرسلوا بكنوزهم. وحتى غير اليهود انضموا إلى القوات المتمردة »[٢]. (فما أشبه البارحة باليوم !) ، ولكن مسيحيي فلسطين أحجموا عن الاشتراك في تلك الثورة [٣] .

وأرسل هادريان جيشاً كبيراً – استدعاه من بريطانيا [٤] – لمواجهة الطغيان اليهودي [٥] بقيادة جوليوس سيفروس Julius Severus ، الذي احتل القدسَ ثانية ، فهرب اليهودُ الى بيثار (التي تعرف الآن باسم بِتّير Bittir ، حيث لا تزال توجـــد خرائب القلعـــة التي تحصّن فيها اليهودُ وسماها العربُ « خربة اليهود ») .

وهزمهم الرومان وأعملوا فيهم سيفَ القتل . وبعـــد إخماد الثورة أقام هادريان مدينةً وثنية على خرائب أورشليم ، سماها

---

(١) ENCY BRIT, op. cit, p. 130.

(٢) Hyamson, op. cit, p. 5.

(٣) Ibid.

(٤) Ibid, p. 8.

(٥) .. الأمر الذي أخفق فيه ساسة بريطانيا العظمى خـــلال « حرب الاستقلال اليهودية » المزعومة إبان الحرب العالمية الثانية !!

إيليا كاپيتولينا Aelia Capitolina، وأقام هيكلا وثنياً للجوبتر على نفس مكان الهيكل القديم، ويقال إنه أنشأ، أيضاً، معبداً لفينوس. ومنع هادريان اليهودَ من الظهور داخل المدينة وكان جزاء المخالفين: القتل [١]؛ واستمر هـــذا الحظر مائتي سنة تالية [٢].

وكان الامبراطور أوريليوس Marcus Aurelius قــد سمح لليهود بدخول القدس لأداء الصلاة [٣]. واليهود الذين بقوا عقب الغزو الروماني كان مركزهم « أكبر بعض الشيء من عبــدة، وخارجين على القانون » [٤].

ولم يبقَ من مظاهر الحياة اليهودية في فلسطين إلا المدارس التي تأسست في المدن الأخرى من « يهودية » دون القدس، وقد استقرت هذه المدارس، بعد مطاردات ومشاغبات، في طبرية، حيث استقرت المحكمةُ اليهودية « سنهدرين » أيضاً بعد أن ظلت تنتقل من مدينة لأخرى عشرات المرات [٥]. وكانت أولى هذه المدارس قد نشأت في الجليل منذ سنة ١٣٥ م.

---

(١) ENCY BRIT, op. cit; Luke, p. 15; Hyamson, op. cit, p. 6; Bentwich, Palestine, pp. 8 – 9.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid, p. 7.

(٤) Ibid, p. 3.

(٥) Bentwich, p. 9.

وهكذا استمر الحكم الروماني المباشر على فلسطين التي ضُمّ اليها كذلك شرقي الأردن وجلعاد وموآب . وفي هـــذه الفترة أُلّفت كتب دينية هـــامة كالتلمود وتوسفتا ؛ و « خلال هذه الفترة ، وُضِعَتْ أُسس اليهودية ، وأخـــذت اليهودية شكلها الدائم . » ، وهي الفترة الخصيبـــة للأدب الديني واللغوي للعبرية [١] .

وفي هذه الأثناء حدث تطور آخر ، هام وخطير من وجهة نظرنا ، وهو أن فلسطين – وحتى مصر – عـادت الى الحكم العربي لمدة ثلاث سنوات ، وذلك حين غزت الملكة العربيـــة زنوبيا [٢] Zenobia سنة ٢٧٠م سائر فلسطين وسوريا ومصر . وكانت قد بدأت الغزوَ بحجة إعادة مصر إلى روما ؛ ووصلت الحاميات التدمرية حتى شالسيدون Chalcedon المواجهـــة لبيزنطة ؛ وحين ارتقى « أورليان » العرش الروماني تنبّه إلى خطر التدمريين وإلى أخطار سياسة زنوبيا ، فنزع منها مصر ثم سار إلى قتالها ، وبعد معارك طويلة استسلم التدمريون ، وحين ثاروا ثانية بعد عدة شهور من عودة أورليان ، رجع هذا الأخير

---

(١) UJE, vol. 8. p. 357.

(٢) أصلها العربي « زينب » ، وهي ملكة الدولة العربية الآرامية ، في تدمر Palmyra بصحراء سورية ، عن : « دائرة المعارف اليهودية العامة » ، المجلد العاشر ، ص ٦٣٩ .

ودمّر « تدمر » نهائياً [1] .

وهكذا انتهت سيطرة العرب ثانية على بلادهم سنة ٢٧٣ م ، بعد أن أثبتوا بذلك حقّهم عليها . وهـذه الوقائع – الحكم الطويل للأنباط العرب لجميع سوريا بما فيها فلسطين ، والحكم القصير للملكة العربية زنوبيا على كل سوريا وعلى مصر – نستمد منها الدليل التاريخي على عروبة هذه البلاد ، الموغلة في القدم ، والقائمة على أساس عريق ، متصل بالماضي البعيد والحاضر القريب . وفي ضوء هذه الحقائق تصبح قضية الصهيونية سفسطة وأحلامَ يقظةٍ ... تلك الأحلام التي لم تكن لتتحقق لولا تلهُّف دولة عظيمة على تبنّيها لمصلحتها هي وحدها ، ثم تبنّي دولة عظمى أخرى لوجود دويلة الصهاينة ، لمصلحة تلك الدولة وحدها ولنفس الأهداف التي جعلت الدولة الأولى تسعى إلى إيجاد ذلك الوجود الجغرافي المصطنع محطّمة بذلك كل الأعراف والتقاليد وكل أسانيد التاريخ .

وسوف نتناول في الصفحات الآتية بعض الحقائق المتعلقة بدويلة اليهود التي قامت عقب العودة من السبي البابلي حتى انهيارها الفعلي سنة ٤٠ ق. م حين سقط آخر مكّابي – أنتي جونوس – أمام هيرود غير اليهودي . وتلك الحقائق سوف تكشف حقيقة الدويلة اليهودية ، وحدودها ، وسيادتها ،

---

(١) ENCY BRIT, vol. 32, p 945.

وثقافتها وحضارتها التي يملأ الصهاينة العـــالم بالضجيج عنها — ولكنهم في الربع قرن الماضي قد قدموا الدليل المادي الواقعي عن حقيقـــة تلك الدويلة المشاغبة ، التوسعية ، العنصرية التي تعرقل النهضة العربية وتستنزف معظم الموارد العربية منذ حقبة طويلة ، وبذلك تحقّق الغرض المنشود من وراء غرسها في قلب العالم الإسلامي .

الفصل السابع

الحقيقة التاريخية لدويلة يهودا
وحدودها ، وما يسمى « بحضارتها »

« كانت حيـاة العبرانيين (في فلسطين)
تشبه حياة رجل يصرّ على الاقامة وسط
طريق مزدحم ، فتدوسه الحافلاتُ
والشاحناتُ باستمرار ... ومن الأول
الى الآخر لم تكن (مملكتهم) سوى حادث
طارىء في تاريخ مصر وسورية وآشور
وفينيقية ، ذلك التاريخ الذي هو أكبر
وأعظم من تاريخهم » .

هـ. ج. ولز
(موجز التاريخ)

إن الاقتباس الآنف الذكر من ولز إنما هو خلاصة لتاريخ
ما يسمى بالدويلة اليهودية في فلسطين الوسطى والتي قامت عقب

عودة اليهود من بابل ، وسميت يهودا أو يهودية ، و « لقد كان نصف يهودا في عصر استقلالها قفراً بلقعاً. فلم يكن الجزء المأهول منها في مثل حجم مقاطعة ولتشاير » [1] . وقد تجاهل رحالةُ القرن الخامس قبل الميـــلاد المؤرخ المعروف هِيرودوتَس Herodotus ذِكْرَ اليهودِ ودولتَهم ما عــدا القدس وبعض الأماكن التي لم تبعــــد عن القدس أكثر من عشرة أميال [2] ، ويعلـّق على موقف هيرودوتس هذا الدكتور فوكس جاكسون Foakes Jackson الأستاذ بجامعة كمبردج في كتابه (يوسف واليهود) قائلاً إن : « تفسيره بسيط غاية البساطة . لقد كانت مملكة يهودا مقاطعة غــاية في الصغر وكان سكانها من التفاهة في العدد لدرجة أن أذكى وأبصر السواح في القرن الخامس قبل الميلاد (هيرودوتس) كان يزور ما كانت تسمى بفلسطين سورية أو بسورية الفلسطينية وقـــد لا يسمع عن اليهود شيئاً أبداً . ولا بد أن القدس كانت في أيام نحميــــا (معاصر من معاصري هيرودوتس) مدينــة خاملة الذكر جداً بحيث لا تُغري سكان المدن المجاورة لها بسكناها إلا بشق الأنفس. والأجدر بالملاحظة من تفاهة اليهود في فلسطين في زمن نحميا (٤٤٥ — ٤٣٢ ق.م) هو أن رقعتهم قد ظلت ضيقة ، كما لا يبـــدو أنهم تكاثروا في البلاد لما يقرب من ثلاثة قرون . لقد زاد الهيكلُ من رونق

---

(١) جفريز ، ص ٣٠ .
(٢) » ص ٤٤ .

المدينة وبهائها وربما زاد من سكان المدينـة أيضاً ، لكن اليهود لم يصبحوا قوة في البلاد إلا حوالى منتصف القرن الثـاني ق . م (فترة حكم المكابيين) . وما من شك أنهم كانوا عديدين في بابل وفي مصر . أما في فلسطين فقد كانوا قلة تافهة . »[1]

وفي رأي جون مارلو : كانت يهودا « **تتضمن شيئاً أكثر بعضَ الشيء من الجبال حول أورشليم** التي هي القلعـة القديمة للقبيلة اليبوسية التي قهرها الإسرائيليون بسرعة بعد دخولهم إلى كنعان »[2] .

ويشرح لنا المؤرخ « بيللوك » رقعة هذه الدولة المزعومة التي كان رئيسُها يسمي نفسه « ملك القدس » ، فيقول :

« إن أحسن طريقة يمكن الإنسان أن يدرك بهـا إلى أي مدى كانت صغيرة هي ، على هذا النحو :

« إذا خرج الرجـلُ مع طلوع الشمس من القـدس متجهاً شرقاً أو غرباً ، ففي وسعه أن يبلغ أطرافها في فترة وجيزة من الصباح . إنه لا يقطع اثني عشر ميلاً من أي من هذه الاتجاهات إلا ويكون قـد خرج من حدود تلك

---

(١) المصدر السابق .

(٢) . Marlowe, Rebellion in Palestine, p. 10.

المقــاطعة ، أو الأرض التي رئيسُها
يُدعى رئيس العشيرة ، أو ذلك الرجل
التـافه الشأن الذي يلقبونه بـ « ملك
القدس » ... إنها رقعــة صغيرة من
منديل مهلهل » [١] .

ولم تكن حكومة العبريين القـدامى سوى صورة مكبّرة للنظام البدوي .. وعلى حد قول غوستاف لوبون :

« تذكّرنا حكومـة العبريين ، على
الدوام ، بالنظام الرعائي الخاص الذي
يُشاهد لدى جميع العبريين .

« وحافظ الشيوخُ ، حتى في عهـد
الملوك ، على كبير سلطان في كل مدينة .

« وفي غضون القرون كان الشيوخ ،
أو القضاة ، يتسلمون القيادة على غرار
رؤساء العصابات البدوية .

« حتى ان الملوك أنفسهم كانت لهم تلك
المزيّة الأبوية أو العسكرية التي يُشْتَق
منهـا كل سلطان لدى بني إسرائيل ،
ومـا كان الملوك هؤلاء ليشابهوا عاهلي

---

(١) جفريز ، ص ٤٤ - ٤٥ .

آسيا المتكبرين الذين هم ضرب من شباه الآلهة فلا يقترب منهم إلا بارتجاف ، إلا بتعريض النفس للموت ؛ وكان شاؤول وداود، وسليمان نفسه، وجميع خلفائهم يعيشون قريبين من الشعب بلا تكلف ليّني الجانب تجاه الجميع معنّفين من الأنبياء ، مهانين بلا عقاب في بعض الأحيان، شأنُ داود الذي رجمه شِمْعي بالحجارة . » [1]

ويدّعي اليهود أنهم كانوا يسكنون حتى على شاطىء فلسطين، وليس على الجبال وحدها، لكنه زعم مبالغ فيه بدرجة كبيرة: « أما القبائل (الإسرائيلية) التي ذكرت على أنها تسكن في الشاطىء فقد كانت في حال من التبعية ، وليس هناك أي دليل يشير إلى أنها كانت تقطن هناك بأية أعداد كبيرة وكانت المدن الساحلية (لغير اليهود) تبسط سلطانها على سهل مرج بن عامر » [2] (عزدرائيلون) .

والحقيقة أن أهمية الدولة اليهودية في التاريخ القديم – إذا كانت هناك أهمية في حقيقة الأمر – تكمن في كون الدولة

---

(١) غوستاف لوبون ، ص ٥٤ .

(٢) جفريز ، ص ٤٠ – ٤١ .

اليهودية على الطريق بين الإمبراطوريتين العظيمتين في ذلك العصر : آشور ومصر . فكان يجب على أية قوة تحاول غزو أي جزء من العالم القديم ، في آسيا أو افريقيا ، أن تفتتح مغامرتها بغزو فلسطين أولاً وتحتفظ بها حتى تتمكن من المضي إلى مصر وشمال افريقيا أو إلى منطقة الهلال الخصيب وفارس .

• • •

ويشرح البروفسور روبنسون علاقة القبائل الوطنية واليهودية كما يلي :

« وكانت الوصاية في بعض الأحيان فعالة وصارمة لدرجة أنه كان يُنكر على إسرائيل حق استخدام الطرق الرئيسية كلية ، فكان يتحتم على رجال القبائل أن يتسللوا عن طريق الطرق الفرعية التي لا تطرق كثيراً ، والممرات والمسارب الملتوية ، من مكان إلى آخر ، إذا أرادوا أن يجتازوا الأراضي المحرمة »[1] .

والمؤرخ اليهودي جوزيفوس Josephus (٣٧ — ٩٥ م ؟)

---

(١) المصدر السابق ص ٤١ .

الذي شهد سقوطَ القـــدس كمحارب في صف اليهود [1] يشرح حالتها الانعزالية قبيل السقوط :

« أما بالنسبة لنـــا نحن ، فلسنا لهذا السبب نقطن في بلد يقع على ساحل ، ولا نبتهج بالتجـــارة ، ولا بذلك الاختلاط بالناس الآخرين الذي ينشأ عنها . لكن المدن التي نسكنها بعيدة عن البحر . ولما كنا نملك بلاداً كثيرة الثمر لسكنانا فـــلا يشغلنا شيء إلا فلاحتها . » [2]

● ● ●

بعد ذكر حدود الدولة اليهودية الشاملة لمعظم شرقي الأردن ونصف لبنـــان وجزءاً من سورية وكل أراضي فلسطين حتى غزة ، نجد ذكر هذه الحدود ، كما يلي ، في مصدر يهودي رسمي :

« إن المنطقــة بكاملها ـــ كما عُرضت آنفاً ـــ لم يحتـــلّ الإسرائيليون كل أجزائهـــا ، لأن السهل الساحلي في

---

(١) Buckmaster, p. 16.

ويحلو للسيدة بكماستر أن تسمي جوزيفوس بجنرال !!

(٢) جفريز ، ص ٤٧ .

الجنوب كان يملكه الفلستينيون ، وكان السهل الشمالي يملكه الفينيقيون ، بينما لم تعد الممتلكات الإسرائيلية في شرقي الأردن بعيـــداً عن الأرنون (وادي الجيب) ، وفي الشمال أيضاً لم يستوطن الإسرائيليون أبداً في الأجزاء الشمالية القاصية ، والشرقية من سهل الباشان (حوران) ، ولذلك فإن فلسطين ، وخصوصاً الدولة الإسرائيلية ، ضمت مساحة صغيرة جـداً ، هي على وجه التقريب مساحة ولاية فيرمونت »[1] (الأمريكية) .

« ... Palestine, and especially the Israelite state, covered therofore, a very small area, approximatley that of the state of Vermont. »

وفي العصر المكـتابي ، كما في العصر السالف للبروز اليهودي ، كان الحكام اليهود يستمدون شرعيـــة وجودهم من دينهم بينما كانت أفعالهم دنيوية بحتة .

يقول جفريز :

« الواقع هو أن المكابيين قـد حكموا

---

(١) JE, Article: Palestine.

كقسس عظام (أي ككبار الكهنة).
وقد تأكدت الصفة الأساسية لليهودية
في ظلهم ، بما فعله ألفريد ، على أنها
دينية وليست دنيوية ، ولقد طلب
ألفريد من جون هايد كانوس المكابي
أن يخلع ثيابَ الكهانة ، وهي الصفة
الحقيقية لرئيس اليهود ، (وذلك)
لانغماسه الشديد في الفتح الدنيوي
للأراضي والمدن ، الأمر الذي لا
يليق به »[1].

وهذا الاستغلال للدين اليهودي لأغراض سياسية إنْ كان سمة العصر اليهودي القديم فهو سمة العصر الجديد أيضاً للجهود السياسية اليهودية التي انتهت إلى إقامة دولة يهودية ولا تزال مستمرة في جهودها لتوسيع حدود هذه الدولة من « نهر مصر حتى نهر الفرات » ، ليس لأن إنشاء الهيكل في القدس يتطلب مجاري النيل والفرات لتصب في حديقة الهيكل ، وإنما لأن إنشاء دولة عظمى تقوم على قدميها اقتصادياً وسياسياً يتطلب حدوداً جغرافية واسعة .

● ● ●

---

(١) جفريز ، ص ٤٥ .

والآن ننتقل إلى مـا يسمى **بحضارة إسرائيل ، وثقافتها ، ورسالتها.** يقول محرر دائرة المعارف البريطانية (طبعة ١٩٦٠) عن حضارة الإسرائيليين :

« ... The Israelites, according to their own account, destroyed far more, and added even less to the material culture of the country. »

« إن الإسرائيليين حسب روايتهم الذاتيـة نفسها ، خرّبوا أكثر بكثير ، وأضافوا حتى أقل من ذلك ، إلى الثقافة المادية للبـلاد . » ثم يضيف : إن الحفريات التي عثروا عليها من آثار العصر اليهودي تدل على « أنهم كانوا بدائيين جداً وبسطاء .. إن اتكال داود وسليمان على حيرام Hiram (ملك صور) وعلى النجارين والبنـائين والحدادين (السوريين) يوضح أن فلسطين كانت لا تزال جارة فقيرة لسورية » [١] .

ولم يوجد لدى العبريين شيء من الفنون الرفيعة ، « وما وقع من مخالفة اليهود للوصية الثانية غير مرة لم يؤدّ إلى غير العجول النحاسية أو الذهبية التي هي أصنام اليهود المفضلة المصبوبة صبّاً رديئاً على أوتاد غليظة عُـدّت رموزاً للرجولة والمنصوبة تحت غياض عشتروت ، تلك الأصنام القومية ، أو الترافيم ، التي هي ضرب من اللعَب المثيرة للسخرية ... إذن لا ينبغي لنـا أن

---

(١) ENCY BRIT, vol. 17 p. 122; Buckmaster, p. 2.

تحدّث عن وجود شيء من فن النحت أو التصوير لدى بني إسرائيل ، وقُل مثل هـذا عن فن البناء عندهم ، فانظرْ إلى هيكلهم المشهور (هيكل سليمان) ، الذي نُشِر حوله كثير من الأبحاث المملة ، تجده بناء أُقيم على الطراز الآشوري المصري من قِبَل بنّائين من الأجانب كما تدل عليه التوراة . ولم تكن قصور ذلك الملك (سليمان) غير نسخ دنيئـة عن القصور المصرية أو الآشورية ... » [1]

وحتى الحرب التي مارسها بنو إسرائيل باستمرار ... رغم ذلك « لم تصبح الحرب فنّاً ولا علماً عنـدهم ، فكانت تعوزهم التعبئة ، وما كان ليكتب لهم فوزٌ إلا بضرب من الصولة المشابهة لغارة البدويين المعاصرين . وبنو إسرائيل إذْ كانوا جبناء خُوّفاً بطبيعتهم لم يبدوا مرهوبين إلا بما كان يحاول إلقاءَه زعماؤُهم وأنبياؤهم فيهم من حماسة مؤقتة . . جاء في سفر الملوك : « فسمع شاؤول وجميعُ إسرائيل كلام الفلسطيني « جُلْيات » هـذا فارتاعوا وخافوا جداً . . ولما سار جدعون إلى المدينيين خاطب جنوده بقوله : « مَنْ كان خائفاً مرتعداً فليرجع وينصرف » ، فتركه من هؤلاء إثنـان وعشرون ألفاً من اثنين وثلاثين ألفاً ليعودوا إلى منازلهم . » [2]

---

(١) غوستاف لوبون ، ص ٤٥ — ٤٦ .

(٢) » » ص ٤٦ — ٤٧ .

ولم يكن لليهود القدماء من نشاط تجـاري على غرار عديد من الشعوب القــديمة ، ولعل السبب يرجع إلى أنهم لم يكونوا محبوبين من جيرانهم، « ولم يَجُلْ بنو إسرائيل في البحر كما كان يجول جيرانُهم الفينيقيون ، وذلك لأنهم لم يكادوا يكونون سادةً للساحل . . »[1]

ولا كان لدى اليهود من صناعــة تُذكَر ، « . . كان بنو إسرائيل عاطلين ، حتى في إبان أبّهتهم ، عطلاً تامـاً من العمال المهَرَة في الحِرَف الغليظة كالنجارة مثلاً . »[2] ، ودليل ذلك ما جاء في التوراة من استعانة سليمان بالعمال المهرة من الفينيقيين والسوريين . « وبنو إسرائيل ظلوا قوماً من الزرّاع والرعـاة فقط ، فانحصر عملهم في تربيـــة المواشي وزراعة القمح والتين والزيتون والعنب على الدوام . وما كان عمل أبطال بني إسرائيل قبل قيادتهم إلى النصر غير جَرّ المحراث وجَزّ الشياه ، فكان جدعون يَدْرُسُ البُرَّ ويذروها حينما بدا له الملَكُ فأمره بأن يُنْقِذَ قومه من نير المدينيين ؛ وكان شاؤول يبحث عن أُتُن أبيه حينما أخبره صموئيل بأنه سيكون مَلِكاً ، واجترأ داودُ على الحرب بردّه الضواري التي أتت لتهاجم ماشيته حينما كان راعياً . . . ولم تكن في فلسطين أية صناعة مهما كان نوعها ، وإذا

(١) غوستاف لوبون ، ص ٢٦ .

(٢) » » ص ٤٥ .

حدث أن صنع اليهود شيئاً فعلى ألاّ يستحق الإصدار (التصدير)، وفي عهد سليمان حينما لاح الترف، كان هـذا الترف يُغذّى بالمنتجات التي يؤتى بها من الخارج .»[1]

أما مصدر رخاء اليهود بعد سليمان فيشرحه غوستاف لوبون في تحليل عميق :

« .. القوافل المثقلة بالنسائج والحلي والتبر والعاج المشذّب كانت تجوب فلسطين بلا انقطاع في فواصل الحروب فلا يَدَعُ الإسرائيليُّ، الماهرُ في التجارة في كل زمن والطامعُ في الربح، تلك الثرواتِ تجاوز أرضه من غير أن يحتفظ بشيء منها لنفسه » .

« وحق المجاوزة هو مصدرُ السخاء الرئيسُ الذي كان ينمو في الغالب وبسرعة في اليهودية، وكان منبع الزرابي الجميلة والنُّسُج الثمينة والثياب الزاهية والحلي اللامعة والمرصوفة الحجارة، التي كانت تستهوي أبناءَ يعقوب على الدوام، فيرفع الأنبياء

(١) غوستاف لوبون ، ص ٤٤ .

عقيرتهم ضدهـــا ، هو ذلك الوضعَ
المتوسطَ وأولئـك السماسرةَ اليهود
الذين غدوا مدينين لموقع البـلد الذي
سكنوه . »[1]

وإلى جانب هذه السمسرة لم يعرف اليهود سوى الزراعة :

« وعرف بنو إسرائيل أن يستفيدوا
من تلك البقعـة السعيدة ، وكان بنو
إسرائيل زرّاعاً ماهرين ، وبنو إسرائيل
لم يحذقوا شيئاً غير هذا ، وهم إذ كانوا
عاطلين من أيّ فن ومن أيّ علم ومن
أية صناعة ، وهم إذ لم يزاولوا التجارة
إلا كوسطاء ، وجّهوا عنـــايتهم إلى
حقولهم ومواشيهم ... وتجـد كتبهم
المقـــدسة حافلة بالنعوت الرعائيـة
وبالمقايسات والأمثلة المقتبسة من حياة
الفلاحين والرعاة . »[2]

وكان اليهود يقترفون أبشع أنواع الجرائم الجنسية ، رغم أن
شريعتهم تحفل بالمحرمات :

---

(١) غوستاف لوبرن ، ص ٢٧ — ٢٩ .
(٢) » » ص ٢٩ .

« ففي شريعتهم تعداد لدعارات عنيفة مع شدة عقوبة مَن يقترف إحداها ، وتُثبت هذه الشدة كثرة المخالفات . . وسفاح ذوي القربى ، أي الزنا بالأخت والزنا بالأم ، واللواطُ والمساحقة ومواقعة البهائم من أكثر الآثام التي كانت شائعة بين ذلك الشعب الذي نصّ تاسيت على شبَق له لا يُروَى غليلُه . وأريد لدى بني إسرائيل ، كما عند كل شعب ذي غُلمة ، خلطُ أفظع الملاذّ بالطقوس المقدسة وموافقةُ الشريعة على هذه الملاذ ؛ فعُدّت ضروب البغاء تكريماً لعشتروت وعُدّ الانهماك في السُّكر على بُسُط الأزهار وتحت ظلال شجر الزيتون في الليالي الرطيبة نوعاً من العبادة التي لم تفتأ تمارس آنئذٍ في فلسطين على الرغم من غضب الأنبياء .

وما في الفصل الثامن عشر من سفر اللاويين من المحظورات ، كسفاح ذوي القربى واللواط ومواقعة الرجال

والنساء للبهائم وما إلى ذلك من الأمور التي لم يحرِّمها معظمُ الشرائع لعدم فائدة النص على ذلك ، فيدلُّ على درجة غلمة الشعب اليهودي . » [1]

أما قانون العقوبات لدى بني إسرائيل :

« فكان كلُّه يقوم على مبدأ القصاص الفطري الجاهلي .. » [2]

وكان الربا عمل بني إسرائيل المفضّل ..

« وكان الربا محرَّماً بشدة بين بني إسرائيل مع أنه عملهم المفضّل تجاه الأجانب في كل زمن ، وكان مبدأُ التضامن القوميّ الزاجرُ القويُّ الوحيد يضع حدّاً لجشع اليهودي »[3] (في حق اليهودي الآخر) .

وكان اليهود يمارسون الرّقّ على مقياس واسع ، وكان الرقيق الإسرائيلي يستحق حقوقاً كثيرة ، أما غير اليهود من

---

(١) غوستاف لوبون ، ص ٥١ .
(٢) » » ص ٥٢ .
(٣) » » ص ٤٨ - ٤٩ .

الأرقـــاء فلم يكن لهم من حقوق ، وقد جاء في التوراة :
« ... من الأمم التي حواليكم تقتنون العبيد والإماء . » .

والتوراة سجل حقيقي لبداوة ووحشية الإسرائيليين . ولو جلسنا نقتطف عبارات من أسفارها المختلفة لملأنا هـذا الكتاب ولن تنتهي أسفارها . وقد أوردنا في بداية هـذا التمهيد بعض النماذج عن اليهود في التوراة ،وفيما يلي نماذج أخرى تدحض الزعم اليهودي بالحضارة والثقافة والرسالة التي يحملونها للعالم :

« إذا أدخلك الربُّ إلهك الأرضَ التي
أقسم لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب
أن يعطيها لك : مدناً عظيمـة حسنة
لم تبنها ، وبيوتاً مملوءة كل خير لم تملأها ،
وصهاريج محفورة لم تحفرها ، وكروماً
وزيتوناً لم تغرسها ، فأكلتَ وشبعتَ ،
فاحذرْ أن تنسى الرب الذي أخرجك
من أرض مصر ، من دار العبودية . »[1]

وكيف عامل اليهودُ القبائلَ — أو « الأممَ » على حد قول التوراة :

— « وإذا أدخلك الرب إلهك الأرضَ
التي أنت صائر اليها لترثها ، واستأصل

(١) تثنية الاشتراع ، الاصحاح ٦ .

أمماً كثيرة من أمـام وجهك ... **سبع أمم أعظم وأكثر منك**، وأسلمهم الرب إلهـك بين يديك، فأبْسلهم (أهلكْهم) إبسالاً : لا تقطع معهم عهداً، ولا تأخذك بهم رأفـة، ولا تصاهرهم، إبنتك لا تعطهـا لابنه، وابنته لا تأخذها لابنك ... بل كذا تصنعون بهم : تنقضون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون غاباتهم وتحرقون تماثيلهم بالنار . » [1]

— « فاحذرْ أن تضرب عهـداً لأهل الأرض التي أنت صائر اليها لئلا يكونوا وهقاً [2] فيما بينكم، بل تنقضون مذابحهم وتحطمون أنصابهم، وتقطعون غاباتهم . » [3]

— « وقال يشوع لقواد رجال الحرب الذين ساروا معه : تقـدموا وضعوا

---

(١) نفس السفر، الاصحاح ٧ .
(٢) الوهق : حبل في طرفه أنشوطة يطرح في عنق الدابة حتى تؤخذ .
(٣) الخروج، الاصحاح ٣٤ .

أقدامكم على رقـــاب هؤلاء الملوك ،
فتقـــدموا ووضعوا أقـــدامهم على
رقابهم . » [1]

وقد ركب محرر دائرة المعارف اليهودية العـــامة (لسنة ١٩٤٨) مركباً خشناً حين حاول إثبات وجود حضارة وثقافة إسرائيلية ، ولكنه أخفق في إثبات أي أثر لها خلال أكثر من صفحتين مطبوعتين بالحروف الصغيرة ، فلم يتمكن من أن يدلنا على أي إضافة يهودية واحدة إلى حضارة البـــلاد ، وثقافتها ، وظل يردد أن هنـــاك تأثيراً مصرياً وكنعانياً وفلستينياً وبابلياً وفينيقياً [2] وآشورياً وإيرانياً على حضارة الإسرائيليين [3] ، فأين تلك الحضارة « الرفا » [المرقّـعَة] ؟ لا يوجد لهـــا أثر في عالم اليوم . وما هي تلك « الرسالة » لإسرائيل التي يتشدق بها أدعياء الصهيونية طول الوقت [4] ؟ لا دليل على وجود هـــذه

---

(١) يشوع ، الاصحاح ١٠ .

(٢) تحدث التوراة أن سليمان استأجر الفينيقيين لبنـــاء الهيكل : الملوك الأول ، الاصحاح ٥ : ٣٢ .

(٣) UJE, vol 8, pp. 354 - 355.

(٤) يقول هيامسون في كتاب نشره سنة ١٩١٧ :

« لو أعيدوا (اليهود) ثانية الى البلاد التي أخرجوا منها قبل ألفي سنة، فإنهم سوف يستأنفون تاريخها المعطل وسيجعلون صهيون مرة أخرى (!!) المركز الروحي للعالم ، وسيجعلون من أنفسهم أمة من الكهنة تكرس نفسها لخدمة البشرية ... » =

الرسالة اليوم مثلما لم يقم دليل على وجودهـــا قبل ألفي سنة ؛ ويقول أحد الباحثين الإنجليز :

« لم يوجد في فلسطين نقش واحد يمكن أن يُنسب إلى المملكة العبرية . .

« لقد فشلت اليهودية في أن تقدم أي أثر لداود أو سليمان ، أو أي نقش أو حجر أو حتى أي نصب تذكاري ، ولهذا فإن قضيتهم تفتقر إلى دليـــل مـــادي مسجل على غرار الأمثلة التي توجد لحياة شعوب غرب آسيا .

« ولم يذكر الإغريق اليهود في التاريخ المبكر ، ومما لا شك فيه أن هذا الشعب — الإغريق — كان يتصل باليهود لو

= ويدعي كذلك « لو أعطيت تلك الحرية ، فإن اليهودي لا يشك أبداً في أن اليهودية ستتمكن من إثبات مبرر (وجود) ها ، وأنه مرة أخرى ، كما في الأيام الخالية ، « من صهيون الى الأقاصي سيذهب القـانون وكلمة الرب من أورشليم . »

Hyamson, Palestine, the Rebirth .. , pp. IX – X.

والرجل يستطيـع بعـــد نصف قرن الآن أن يتصور فداحة الظلم الذي اقترفه الذين تبنوا هـــذه السياسة الصهيونية المهلكة وبذلك أوجدوا ثكنة عسكرية هدامة في الشرق الأوسط ، تهدم التاريخ والحضارة والتقـدم وتقتل الشعوب تماما كما فعلت في أيامها الغابرة .

كانت فلسطين حقاً وطنهم القومي .
ولم يعرف هوميروس المقدس شيئاً
عنهم »[1] .

إن اليهود لا نصيب لهم في الحضارة القديمة ...

« لم يجاوز قدماء اليهود أطوار
الحضارة السفلى التي لا تكاد تميز
من طور الوحشية ، وعندما خرج
هؤلاء البدويون ، الذين لا أثر للثقافة
فيهم ، من باديتهم ليستقروا بفلسطين
وجدوا أنفسهم أمام أمم قوية متمدنة
منذ زمن طويل ، فكان أمرهم كأمر
جميع عروق الدنيا التي تكون في
أحوال مماثلة ، فلم يقتبسوا من تلك
الأمم العليا سوى أخس ما في حضارتها ،
أي لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها
الضارية ودعارتها وخرافاتها ، فقربوا
لجميع آلهة آسيا ، قربوا لعشتروت
ولبعل ولمولوخ ، من القرابين ما هو
أكثر جداً مما قربوه لإله قبيلتهم يهوه

(١) فرانسيس نيوتن : الانتداب على فلسطين، ١٩٤٦ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

العبوس الحقود الذي لم يثقوا بـه إلا قليـلاً لطويل زمن، على الرغم من كل إنذار جاء به أنبياؤهم، وكانوا يعبدون عجولاً معدنية، وكانوا يضعون أبناءَهم في ذُرعان مُحْمَرّة من نار مولوخ، وكانوا يحملون نساءهم على البغاء المقدس في المشارف.

« وأثبت اليهود عجزهم التام العجيب عن الإتيان بأدنى تقـدم في الحضارة التي اقتبسوا أحطّ عناصرها. واليهود، بعـد أن جمعوا ثرواتٍ وفق غرائزهم التجارية القوية، لم يجدوا بينهم بنّائين ومتفننين قادرين على شَيْدِ مبـانٍ وقصور، فاضطروا إلى الاستعانة على ذلك بجيرانهم الفينيقيين على الخصوص، كما تدلّ عليه التوراة. واليهود قـد اقتصرت معارفُهم على تربية السوائم وعلى فَلْح الأرض، وعلى التجـارة بوجه خاص.

« ومـا كان فَلاح اليهود ليدوم غير هنيهة مع ذلك، فقد أسفرت غرائزهم

في النهب والسلب، وقد أسفر تعصبهم، عن عدم احتمال جميع جيرانهم لهم؛ فلم يُشَقّ على هؤلاء الجيران أن يستعبدوهم. ثم إن اليهود عاشوا عَيْشَ الفوضى الهائلة على الدوام تقريباً، ولم يكن تاريخهم غير قصة لضروب المنكرات، فمن حديث الأسارى الذين يُوشَرون بالمنشار أحياءً أو الذين كانوا يُشْوَوْن في الأفران، فإلى حديث الملِكات اللائي كنّ يُطْرَحْنَ لتأكلهن الكلاب، فإلى حديث سكان المدن الذين كانوا يُذْبَحون من غير تفريق بين الرجال والنساء والشّيب والولدان، فما كان الآشوريون ليُبْدوا ضراء أشد من ذلك.

« والبؤس الأسود الذي صُبّ من فوره على بني إسرائيل هو الذي حالَ — لا ريب — دون انحلالهم التام وأدّى إلى محافظتهم على وحدتهم العجيبة؛ وما أُوحي به اليهم دوماً من كُرْهٍ عميق لمختلف الأمم التي اتصلوا بها: صانهم من الزوال بانصهارهم فيها، وما حدث

من سحق الدول المجاورة إياهم ، ومن استعباد الدول الآسيوية العظمى لهم في كلّ حين ، ومن استرسالهم في الفتن الداخلية الدائمة ووقوعهم في داء الفوضى العُضال عند استردادهم ظلاً من الحرية : أَوْجَبَ ظهورَ أحوال لا تعرف الروحُ البشرية معها سوى وساوس القنوط لِما لا يكون لديها من عوامل الأمل ، فهناك كان يظهر أولئك المتهوّسون وأولئك المتعصبون الراجفون ذوو النفوذ العميق في نفوس الجموع على الدوام ، فما كان لأمّةٍ من العرّافين والمُلْهَمين والمجاذيب مثلُ ما كان لبني إسرائيل ، وبنو إسرائيل لم يظهر فيهم من النوابغ غيرُ الأنبياء والشعراء . » (١)

« ... إن تأثير اليهود في تاريخ الحضارة صفر ... (وهُمْ) لم يستحقوا أن يُعَدّوا من الأمم المتمدنة بأي وجه . » (٢)

---

(١) الدكتور غوستاف لوبون ، اليهود في تاريخ الحضارات الاولى ، ص ٢٠ — ٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

فيما يسمى بحضارتهم القـــديمة كانت في حقيقتها ترقيعاً من عناصر مصرية وبابلية وهيلينية. وما يسمى بتجربتهم الحضارية اليوم هي ترقيع جديد من مفاهيم اشتراكية واستعمارية .

والعلاّمة غوستاف لوبون يشرح لنـــا بإسهاب حقيقة تلك الرسالة والثقافة والحضارة :

« وظلَّ بنو إسرائيل قوماً من الزرّاع والرعاة حتى بعـــد صلتهم الطويلة بالحضارة الكلدانية الساطعة ، وحتى بعد إقامتهم بمصر ...

« وبقي بنو إسرائيل ، حتى في عهـد ملوكهم ، بدويين ، أفاقين ، مفاجئين ، مغيرين ، سفاكين ، مولعين بقطاعهم ، مندفعين في الخصام الوحشي ، فإذا ما بلغ الجهدُ منهم ركنوا إلى خيـــال رخيص تائهـــة أبصارهم في الفضاء ، كسالى ، خالين من الفكر كأنعامهم التي يحرسونها .

« وإذْ كان بنو إسرائيل متمردين على الفنون تمرُّداً مطلقاً ولم يكن لهم غير ميل هزيل إلى حيـــاة المدن ، فإنهم لم يقيموا معابد وقصوراً إلا عن غرور ،

والذي كان بنو إسرائيل يفضّلونه بعد الذبح والتقتيل هو (السكون تحت شجر العنب والتين) على حد تعبيرهم . . .
« وإذا ما أُريدتْ معرفةُ الإسرائيلي، كما هو ، يجب ألا يُحكم فيه بآثاره المكتوبة التي ليس معظمها سوى ذكريات من كلدة ، بل يجب أن يزال عنه أثر الحضارة الخفيف الذي عانى كثيراً في اقتباسه من الدول القوية التي عاش فيها . . . » [1]

ويقول في مقام آخر : « **ولم تكن فلسطين، او أرض الميعاد، غير بيئة مختلقة لبني إسرائيل ، فالبادية كانت الوطن الحقيقي لبني إسرائيل** » [2] .

ويقول العلاّمة لوبون في مكان آخر من بحثه الهام :

« وإذا أُريد تلخيص مزاج اليهود النفسي في بضع كلمات كما يستنبط من أسفارهم وُجِد أنه َظلّ على الدوام قريباً جداً من حال أشد الشعوب

(١) غوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الاولى، ص ٣٠ - ٣١.
(٢) المصدر السابق ، ص ٣١ .

ابتدائية ، فقد كان اليهود عُنُداً ، مندفعين ، غُفلاً ، سذّجاً ، جفاةً كالوحوش والأطفال ، وكانوا مع ذلك عاطلين في كل وقت من الفتون الذي يتجلى فيه سحرُ صبا الناس والشعوب. واليهود الهمج إذْ وجدوا من فورهم مغمورين في سواء الحضارة الآسيوية المسنة الناعمة المفسدة أضحوا ذوي معايب مع بقائهم جاهلين ، واليهود أضاعوا خلال البادية من غير أن ينالوا شيئاً من النموّ الذهني الذي هو تراث القرون ».

«وإذا أريد وصف المجتمع اليهودي من ناحية النظم أمكن تلخيصه في كلمتين وهما « نظام رعائي» مع طبائع المدن الآسيوية الهرمة وذوقها وعيوبها وخرافاتها » [1] .

« ولا تجد شعباً عَطِلَ من الذوق الفني كما عطل اليهود . » [2]

(١) المصدر السابق ، ص ٥٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٥ .

« ظل اليهود حتى آخر مرحلة من تاريخهم في أدنى درجة من الحضارة قريبين من دور التوحش الخالص . ولم يجاوز اليهودُ طبائعَ أمم الزرّاع والرعاة إلا قليلاً جداً ، وخضع اليهودُ لنظام رعائي ولم يكادوا يدخلون دائرة التطور الاجتماعي »[1] .

وستكتمل لدينا صورة الحضارة والثقافة والرسالة الإسرائيلية الخالدة ! — التي استأنفها اليهود مرة أخرى في هذا القرن — من الاقتباس التالي من العلامة لوبون :

« ويعرف جميع قرّاء التوراة وحشية اليهود التي لا أثر للرحمة فيها ، وما على القارىء ليقتنع بذلك ، إلا أن يتصفح نصوص سفر الملوك التي تدلنا على أن داود كان يأمر بحرق جميع المغلوبين وسلخ جلودهم ونشرهم بالمنشار ؛ وكان الذبح المنظم بالجملة يعقب كل فتح مهما قلّ ، وكان الأهالي الأصليون يوقفون فيُحْكَم عليهم بالقتل دفعة

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٣ .

واحدة ، فيُبادون باسم يَهْوَه من غير نظر إلى الجنس ولا إلى السن ، وكان التحريق والسلب يلازمان سفك الدماء »[1] .

ثم ما هي الأخلاق التي نخرج بها من تاريخ اليهود ؟ غوستاف لوبون يعدّها لنا في سخرية لاذعة :

« ... وما الصفحات التي عرفتْ أجيالُ الآدميين المتعاقبةُ أن تجد فيها أسمى مبادىء الأخلاق إلا أخبار ما يتألف منه تاريخ اليهود من العهارة والذبح ، ومن حيال يعقوب ، وزناء بنات لوط وسفاح داود ، والبغاء في المشارف ، وضروب التقتيل بلا رحمة ، وما إلى ذلك من أنباء ذلك الشعب المتوحش التافهة ... »[2]

لقد اتضح من هذا العرض أن الدعاوى الصهيونية في العصر الحديث لا تمتُّ إلى الماضي البعيد بصلة ، وإنما هي أسلوب جديد للاستغلال ، تماماً كالأساليب الأخرى التي ظلّت حركات ودول

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٧ .
(٢) غوستاف لوبون ، ص ٢٢ - ٢٣ . (هكذا رواياتهم)

استعمارية أخرى تستغلها ، فقد كانت فرنسا تركّز أنظارها الشرهة على سوريا الكبرى ، منذ قرون ، زاعمة أن لها « رسالة حضارية» فيها ، وكانت بريطانيا تريد تعليم الشعوب التي احتلت أراضيها ؛ ولكن كل هـــذه الشعوب وغيرها انتهت أدوارها الحضارية فيما وراء البحار وإذا بنــا نجد جميع الشعوب التي استعمروها مثقلة بتركة قاصمة الظهور من شتى المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، أكثر بكثير من تلك التي كانوا يعانون منها قبل احتلالها من قِبَل هذه القوى ذات الرسالات الحضارية المزعومة .

وقبل إنهاء هذه السطور نريد أن نؤكد أننــا لا ننكر وعد الله بني إسرائيل بفلسطين، ولكن ذلك كان في الأزمنة الخالية ، وقد تحققت العودةُ كذلك ، حين عادوا من بابل وهم ٤٢ ألفاً راجعين إلى الوطن :

« وهم يملأون أفواهَهم بالضحك ، وألسنتَهم بالفرح » [١].

فنقدنا في مقامه الأول موجّه إلى أن تلك النبوءات قد تحققت وانتهى أمرها ، وكذلك في الوقت نفسه ، الى أسلوب المتاجرة والاستغلال الذي اتبعوه في الأيام الخاليــة (والحالية) لتحقيق تلك النبوءات ، الأسلوب الذي يقول عنه جون دريدن :

« ... شعب الله المدَلّل، الذي يسهل

---

(١) Ps. CXXVI, 2.

إغواؤه ، فــلا مَلِكَ يستطيع أن يحكمــه ، ولا رب يستطيــع أن يُرضيه ...

« ولكن عنـدما ازداد الشعبُ المختار قوةً : صارت القضيةُ العـادلة ، على توالي الأيام : قضية خاطئة . » (١)

وباختصار ، كما يقول المؤرخ الإنجليزي جون مارلو :

« بالرغم من أن بني إسرائيل لم يهتموا أبداً ، بلطف ، بالزراعــة ، إلا أنهم أصبحوا غــاية في الرخاء ، وذلك بأن عــاشوا وتكاثروا أساساً على نهب ممتلكات وثروات الشعوب المجــاورة . إنه يبدو أنهم كانوا شعباً عديم الرحمة ومتطرفاً عديم التسامح إلى أقصى حد ، وكانوا محنكين أكثر في فنون الحرب من فنون السلام ، وكانوا خطراً دائمَ الازدياد موجَّهاً ضد السكان الموسرين في السهول » (٢) .

---

(١) عن نقولا الدر ، هكذا ضاعت وهكذا تعود ، ص ٢٨٠ .

(٢) Marlowe, p. 10.

الفصل الثامن

من قسطنطين حتى الفتح الاسلامي

٣٠٦ – ٦٣٩ م (١٥ ه)

« .. انضم اليهود إلى الفرس ، وانتقموا هم والفرسُ انتقاماً دموياً من المسيحيين. »

دائرة المعارف اليهودية العامة

لقد وقع تطور مثير في غير صالح اليهود حين اعتنق قسطنطين (٢٨٨ ؟ – ٣٢٧ م) المسيحية سنة ٣١١ م ، وبذلك ازداد الاضطهاد المسيحي لليهود ، لأن قسطنطين أعاد أحكام هادريان الخاصة بمنع اليهود من الإقامة في القدس – والتي كان قد خفّفها أوريليوس – وكان الحكام يتساهلون في تنفيذها قبل عهد قسطنطين [١] .

---

(١) Hyamson, Palestine, the Rebirth, p. 8.

واستمر أخوه – قسطنطيوس Constantius – من بعده في تنفيـذ سياسته تجاه اليهود الذين اعتبرهم قتَلَة سيدنا عيسى المسيح عليه السلام .

ولكن الإمبراطور جوليان الذي جلس على العرش سنة ٣٦١ م ارتد عن المسيحية ،وألغى جميع الأحكام ضد اليهود[١]. ويعث جوليـــان برسالة إلى جميع الجاليات اليهودية في مملكته يؤكد فيها عزمه على إعادة بنـاء الهيكل وكان قصده من وراء ذلك إبطال النبوة [٢] « ولم يكن هذا وعداً فارغاً. لقد خصص الإمبراطور أموالاً على حدة ، لهذا العمل ، وجَمَّعَ موادَّ البناء، وأقام جيشاً من العمال لتنظيف المكان من القذارة التي كانت قد تراكمت منذ قرون .. » [٣] . « وهـذا العمل تعطّل تقريباً في نفس الوقت الذي بدأ فيه ، وذلك بسبب ظاهرة غير عـادية وهي اشتعال النيران والانفجارات المدوية ، والتي فسرت بسهولة في تلك الايام كحكم سماوي على هـذه المحاولة المباشرة لإبطال نبوءة المسيح »[٤]. ولكن يهود فلسطين لم يشتركوا أبداً في هذا العمل ، كما أن موت هادريان في معركة مع الفرس قـد أنهى هذا الفصل [٥] .

---

(١) Ibid, pp. 8 – 9; ENCY BRIT, op. cit.

(٢) Buckmaster, p. 17.

(٣) Hyamson, op. cit. p. 10.

(٤) ENCY BRIT, op. cit, p. 130.

(٥) Hyamson, op. cit, p. 10.

وعنـــدما انقسمت الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٩٥ م ، وقعت فلسطين في حصة الإمبراطورية الشرقية : بيزنطة ؛ وفي القرنين التاليين لم يكن للبلاد تاريخ خارجي[١] . فقد كانت هذه سنوات السلام والأمن في فلسطين . وقد استمر الحجاج – يهوداً ومسيحيين – يزورون الأماكن المقدسة فيها[٢] .

وكان السماريون (الكوثيون الذين أجبرهم اليهودُ على اعتناق اليهودية) لا يزالون في عدد كبير في شمالي فلسطين . وقــد ثار السماريون Samaritans ثورة نهـائية سنة ٥٢٩ م ولكن دولة الغساسنة العربيـــة في حوران ، التي كانت تتبع البيزنطيين ، قهرتهم قهراً دموياً ، فخرّبت ديارهم وأجبرتهم على الدخول في المسيحية ، ولم يبق من السماريين إلا عـــدد ضئيل[٣] . ولعل هؤلاء هم سكان قرية (البكيرة) غربي صفد في الجليل الأعلى ، التي اكتشفها السير لورانس أوليفانت في النصف الثاني من القرن الماضي[٤] .

---

(١) Ibid.

(٢) ENCY BRIT, op. cit.

(٣) UJE, vol. 8. p. 358.

(٤) جفريز ، ص ٧٤ .

وهؤلاء السماريون الذين تدعوهم دائرة المعارف اليهودية العامة زوراً وبهتاناً بأنهم ورثة وخلفاء إسرائيل ، وذلك بالتجاهل بأنهم شعب غير يهودي ، جيء بهم من فـارس . وللسماريين ، أو الكوثيين ، مع اليهود – كما سبق – تاريخ حزين. ويقول جون مارلو عنهم أنهم:« بعد تاريخ مضطرب وغير سعيد ، =

وقد أقام الملك جستينيان Justinian (٥٢٧ — ٥٦٥ م) الباب الذهبي لمنطقة الهيكل، وهو جزء من المسجد الأقصى الآن.

وفي سنة ٦١١ م تعرّض أمن فلسطين للخطر مرة أخرى حين أغار خسرو الثاني Chosroes II على فوكاس Phocas الذي كان قـــد اغتصب الإمبراطورية من « موريس » (الذي كان صديقاً لخسرو، والذي كان قد زوّج إحدى بناته للامبراطور الإيراني). وبدا لليهود أن خسرو « جـــاء لتخليصهم » [١]. وناصرت بعضُ الفرق المسيحية، كالنسطورية واليعاقبة، الحاقدة على النظام الجديد في روما: الفاتحين الجددَ، وتبعها اليهودُ [٢]، « المشتاقون للانتقـــام لمآسيهم. » [٣]. « وجميعُ يهود الجليل الذين كانوا قابلين لحمل السلاح انضموا مع القوات الغــــازية، متلهفين للتنفيس عن عدائهم لروما وللمسيحية. » [٤]

= لا يزالون موجودين، ويمثلهم عدد قليل جداً الآن، وهم شعب على الفطرة بدرجة لا يمكن تصديقه ومتخلفون، يعيشون في انعزال غير مؤذ، في ركن من مدينة نابلس العربية. « Marlowe, p. 11.

(١) Hyamson, op. cit, p. 12.

(٢) يراجع للتفصيل كتاب جبن:

Edward Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol. 5.

(٣) ENCY BRIT, op. cit, p. 131.

(٤) Hyamson, p. 12.

وهكذا انضمَّ اليهود إلى الفرس : « فرحين ، وانتقموا هم والفرسُ انتقاماً دموياً من المسيحيين . » (١)

وقد حطم الفرسُ كنيسةَ القيامة Holy Sepulchre ونهبوا كنوزها وحطموا كنائس أخرى (٢) . واشترك اليهودُ مع الفرس في قتل جميع مسيحيي القدس وتدمير أماكنهم الدينية (٣) . وهكذا فقَدَ البيزنطيون سورية بما فيها فلسطين لبعض السنين ، ولم يستردها إلا هرقل سنة ٦٢٨ م ، لِيَفْقِدَها نهائياً عما قريب .

أما اليهود في ظل الفرس ، فقد دبَّ الخلاف فيما بينهم ، فقد كانوا « يحلمون بأنه سيُسمح لهم بإنشاء جمهورية (هكذا) في بيتهم القديم ، ولكن آمالهم لم تتحقق » ، هذا بالإضافة إلى ضيقهم بالضرائب التي فرضها الفرسُ (٤) . ولهذا مالَ اليهودُ ثانيةً إلى البيزنطيين حين قدَّمَ اليهم هرقل وعداً بالتسامح سنة ٦٢٧ م (٥) ، ثم وعداً آخر بالعفو سنة ٦٢٨ م ، الذي قبِلَه اليهودُ لأن « عبدةَ النار لم يكونوا ألطف من البيزنطيين » (٦) .

---

(١) UJE, op. cit.

(٢) ENCY BRIT, op. cit.

(٣) Hyamson, pp. 12 - 13.

(٤) Ibid, p. 12.

(٥) Ibid.

(٦) UJE, op. cit.

ولكن هرقل لم يفِ بوعده تحت ضغط رجال الدين ، الذين قالوا له إنهم سيتحملون المسؤولية وأن الاتفاقيات مع الكفار ليست واجبة التنفيذ [1] ، وعند ذلك وقعت مذبحة لليهود لم يبقَ منها إلا الذين فرُّوا إلى مصر أو الذين اختفوا في يهودية [2] .

(١) Ibid.

(٢) Hyamson, p. 13.

الفصل التاسع

من الفتح الاسلامي حتى الحروب الصليبية

٦٣٩ م (١٥ ﻫ) - ١٠٩٦ م

« إن فتحَ العرب للبلاد أنقذَ يهودَ فلسطين من الدمار الكامل » [١] .

دائرة المعارف اليهودية العامة

« وعملياً ، فيما يتعلق بيهود فلسطين ، فإن المسلمين قد جاؤوا كمنقذين ، وليس كمضطهدين . » [٢]

المؤرخ اليهودي هيامسون

---

(١) « Conquest of the country by the Arabs saved the Jews of Palestine from complete destruction. »
UJE, vol. 8, p. 358.

(٢) « ... in practice, so far as the Jews of Palestine were concerned, the Moslems came as deliveres and not as oppressors. »
Hyamson, Palestine, p. 15.

لقـــد هزم المسلمون حاكمَ جنوبي فلسطين : سرجيوس Sergius سنة ٦٣٤م، ثم هزموا في السنة نفسها ثيودور – شقيقَ هرقل – في وادي السَّنْت Wadi al-Sant ، وانتصروا مرة أخرى سنة ٦٣٥ م . وغزوا دمشق في سبتمبر من تلك السنة ذاتها [١] . وجمع هرقل سنة ٦٣٦ م جيشاً من المرتزقة والأرمن والعرب السوريين وتقدم عبر البقـــاع وبانياس وعَبَرَ الأردنَّ جنوبي بحيرة الحولة . وظلَّت القوتان على ضفتي اليرموك لعــدة أسابيع ، ربما في انتظار الإمدادات ، وجرت محاولات عقيمة لعقـــد الصلح ؛ وأخيراً بدأ اليونانيون بالهجوم [٢] ، وانتصر العرب ، وكان انتصارهم ذا أهمية خطيرة لمستقبل العالم وللتاريخ. ولم يكن العرب في هذه المعركة متفوقين عدداً ، بل كان معظمهم مشاة [٣] ، على عكس اليونانيين (الرومان) . وترك هرقل بعد هذا سوريا ، ولم يكن لديه خيار آخر [٤] .

ثم تقـــدم المسلمون نحو بيت المقدس وحاصروه ، واستمات

---

(١) ووقع حادث طريف يؤكد عروبة تلك البلاد السورية وكذلك يؤكد أن سكانها كانوا يشعرون بأنهم عرب ، فقـد حدث أن سكان حمص – الذين كانوا قد رفعوا السلاح ضد المسلمين – قد أرسلوا إلى خالد بن الوليد بعـــد هزيمة الروم : « إنهم عرب وإنهم إنما حشروا ، ولم يكن في رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم . » تاريخ الطبري ، الجزء الثالث ، ص ٦٠١ .

(٢) Luke, p. 17.

(٣) Ibid.

(٤) Ibid.

الروم في الدفاع عنه ، وحين أرسل عمرو بن العاص رسالة إلى القائد الرومي ، يطلب منه فيها التسليم ، سَخِرَ هذا الأخيرُ من رسالته قائلاً : إن الذي سيفتح القدس إسمه يتكون من ثلاثة حروف وليس من أربعة حروف [١] .

وعندما يئس الرومُ من المقاومة ، طلب البطريرك صفرونيوس Sophronius أن يكون التسليم لأميرهم ، وهنا تقدم عمرو ، فقال البطريرك له: لا ، إننا نريد أن يكون التسليم لأمير المؤمنين نفسه ؛ فكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين يطلب منه الحضور لأن أهل القدس طلبوا منه « أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام ، وأن يكون المتولي عمر بن الخطاب » [٢] .

وعندما جاء أمير المؤمنين إلى الجابية — حيث تمّ الصلح مع المقدسيين — حضر اليه رجل من اليهود وقال له : « يا أمير المؤمنين ، لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء » [٣] . وعند دخول عمر — رضي الله عنه — الشام لقيه يهودي آخر فقال له: « السلام عليك يا فاروق ! أنت صاحب إيلياء . لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء » [٤] ، وكان هذا اليهودي شاهداً

---

(١) تاريخ الطبري ، الجزء الثالث ، ص ٦٠٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٠٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٠٨ .

على الصلح بين المسلمين وأهل إيلياء [1] .

وقد كان اليهود ، كما سبق ذكره ، يلقون اضطهاداً من الدولة البيزنطية . فلما أخـــذ العرب يفتحون بلاد الشام جعل اليهود يرحّبون بهم استبشاراً بالنجاة من نير بيزنطة [2] .

وَشهِدَ شاهدٌ من أهلها

ونقتطف هنـــا ترجمة من مخطوط تاريخي هام قديم باليونانية وجده عبدُ الله التل (قائد معركة القدس سنة ١٩٤٨ ثم حاكمها العسكري) في دير المصلبة في القدس ، يسجّل بتفصيل حادث مجيء الخليفة [3] :

« لما اشتدّ حصار جيوش المسلمين ببيت المقدس سنة ٦٣٦م ، أطلّ البطريرك صفرونيوس على المحـــاصرين من فوق أسوار المدينـــة وقال لهم : إنا نريد أن نسلّم ولكن بشرط أن يكون التسليم لأميركم : فقدّموا له أميرَ الجيش ، فقال : لا ، إنما نريد

---

(١) تاريخ الطبري ، الجزء الثالث ، ص ٦٠٨ .

(٢) Wismar, Adolph L. , A Study of Tolerance as practised by Muhammad and His immediate successors, New York, 1927, p. 82.

(٣) عبد الله التل: « خطر اليهودية العالمية عل الاسلام والمسيحية » ، دار القلم ، القاهرة : ١٩٦٤ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ .

وهذه الرواية تطابق الوقائع إلى حد كبير ما عدا إغفالهـــا مرور عمر بالجابية .

الأمير الأكبر ، نريد أمير المؤمنين . فكتب أميرُ الجيش إلى عمر ابن الخطاب يقول : إن القوم يريدون تسليم المدينة لكنهم يشترطون أن يكون ذلك لِيَدِكَ شخصياً .

فخرج عمر من المدينة قاصداً بيت المقدس ومعه راحلة واحدة وغلام ، فلما صار في ظاهر المدينة قال لغلامه : نحن إثنان والراحلة واحدة ،فإن ركبتُ أنا ومشيتَ أنت ظلمتُكَ ، وإن ركبتَ أنت ومشيتُ أنا ظلمتَني ، وإن ركبنا الإثنان : قصمنا ظهرَها ، فلنقتسم الطريقَ مثالثةً . وأخذ عمر يركب مرحلةً ويقود مرحلةً ، وتمشي الراحلة أمامها متخففة من حمل أحد : مرحلةً . وهكذا استمر عمر يقسم الطريق مثالثة بين نفسه وبين غلامه وبين راحلته من المدينة حتى بلغ جبلاً مشرفاً على القدس صادف أن كانت ببلوغه قد انتهتْ مرحلةُ ركوبه ، فكَبَّرَ من فوق الراحلة[1].ولما فرغ من تكبيره، قال لغلامه : دورك ... إركبْ ، فقال الغلام : يا أمير المؤمنين ! لا تنزلنّ ولا أركبنّ ، فإنّا مقبلون على مدينة فيها مدنية وحضارة ، وفيها الخيول المطهمة المسرجة والعربات المذهّبة ، فإن دخلنا على هذه الصورة — أنا راكب على الراحلة وأميرُ المؤمنين آخذ بمقودها — هزئوا بنا وسخروا من أمرنا ، وقد يؤثّر ذلك على نصرنا ، فقال عمر : دورك ... ولو كان الدور دوري ما نزلتُ

---

(١) وسمي ذلك الجبل منذئذ : بجبل المكبر .

وما ركبتَ ، أما والدورُ دورُك فوالله لأنزلنّ ولتركبنّ . ونزل عمر وركب الغلامُ الراحلةَ وأخـــذ عمر بقودها فلما بلغ سور المدينـة وَجَدَ نصاراها في استقباله خارج بابهـا المسمى بباب دمشق ، وعلى رأسهم البطريرك صفرونيوس ، فلما رأوه آخذاً بقود الراحلة وغلامه فوق رحلها ، أكبروه وخرّوا له ساجدين. فأشاح الغلامُ عليهم بعصاه من فوق رحلها وصاح فيهم : ويحكم، إرفعوا رؤوسكم ، فإنه لا ينبغي السجود إلا لله . فلمـــا رفعوا رؤوسهم، انتحى البطريرك صفرونيوس ناحيةً وبكى . فتأثـّر عمر ، وأقبل عليه يطيّب خاطره ويواسيه قـائلاً : لا تحزن ، هوّنْ عليك ، فالدنيا دواليك ، يوم لك ويوم عليك . فقـــال صفرونيوس : أظننتَني لضياع الملك بكيتُ .. ؟ والله ما لهذا بكيت، وإنما بكيتُ لما أيقنتُ أن دولتكم على الدهر باقية ترقّ ولا تنقطع ... فدولة الظلم ساعة ودولة العدل إلى قيام الساعة ، وكنت حسبتُها دولة فاتحين تمرّ ثم تنقرض مع السنين » .

« وخطب عمر في تلك الجموع الحاشدة مستهلاً خطبته بقوله:
يا أهل إيلياء ، لكم ما لنا وعليكم ما علينا .

« ثم دعاه البطريرك صفرونيوس لتفقـّد كنيسة القبر المقدس (كنيسة القيامة) فلبّى الدعوة، وأدركتْه الصلاةُ وهو فيها ، فالتفت إلى البطريرك وقال له : أين أصلّي ؟ فقال : مكانَكَ صلّ .. فقال : ما كان لعمر أن يصلي في كنيسة القيـامة فيأتي المسلمون من بعدي ويقولون هنا صلّى عمر ويبنون عليه مسجداً.

وابتعد عنها رميةَ حجر وفرَشَ عباءَته وصلى . وجاء المسلمون من بعده وبنوا على مصلاه مسجداً وهو قائم على رمية حجر من كنيسة القيامة إلى يومنا هذا .

« ثم سأل عمرُ البطريركَ صفرونيوس عن موضع المسجد الأقصى [1] فدلَّه على عمود داود وكرسي سليمان (حيث مكان المسجد الأقصى) فوجده مغموراً بالقمامة ففرَشَ عمر الظالم (هكذا في النص) عباءَته وأخذ ينزح فيها القمامةَ من مكان المسجد الأقصى ويلقيها في الأودية ، واقتدى به قادة المسلمين ورؤساء الجند حتى طهَّروه تطهيراً ... ثم بنى عليه مسجداً . » [2]

العهد العمري

وقد أعطى عمر ، رضي الله عنه ، عهداً إلى أهل أورشليم ،

---

(١) للرواية اليهودية عن هذا يراجع :

Hyamson, Palestine, the Rebirth... , p. 14.

(٢) ويضيف عبد الله التل : « جدير بالذكر أنني رأيت مع النص الذي ذكرته : رسماً يمثل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين دخوله القدس ، وقد رسموه في ثياب أهل الجزيرة العربية ملتحياً داخلاً من باب دمشق - باب العمود - ذا مهابة وجلال ووقار ، ماشياً على قدميه ، في تواضع المخلصين الأبرار ، آخذاً مقود الراحلة بيسراه ، وإلى أعلى رافعاً يمناه ، محذراً الساجدين له من السجود لغير الله . كذلك يمثل الرسم الغلام أجرد أسود مستقراً فوق رحله رافعاً في وجوه القوم عصاه ، مستنكراً سجودهم لمولاه صائحاً فيهم : (إنه لا ينبغي السجود إلا لله !) » — عبد الله التل ، المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

وهو أحسن معاهدة توجد في التاريخ للتعامل بين شعب غالب وآخر مغلوب [١] .

وننقل هنا النص الكامل للعهد — أو العهدة العمرية — الذي أعطي للمسيحيين بعد الفتح الإسلامي لنقارنه بالعهد البريطاني الصليبي الذي أعطي لليهود سنة ١٩١٧ ، قبل الاحتلال الإنجليزي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبدُ الله : عمرُ أميرُ المؤمنين أهلَ إيلياء من الأمان ؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ؛ أنه لا تُسكن كنائسُهم ولا تُهدَم ، ولا يُنقَص منها ولا من حيِّزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ،

---

(١) ورغم هذا وجد بين المؤرخين الأوروبيين من زاغت قلوبهم فنسبوا إلى عمر شروطاً شائنة زعموا أنه فرضها على المسيحيين واليهود على السواء ، ولكن يقول محرر دائرة المعارف البريطانية : « شروط السلام المفروضة على المسيحيين كانت مقبولة ، والشروط المهينة التي نسبت إلى عمر فيما بعد هي في الحقيقة نتاج فترة متأخرة . »
ENCY BRIT, vol. 17, p. 131.
وعن التدجيل حول شروط عمر « القاسية جداً » مع اليهود يراجع مثلاً :
Hyamson, op, cit, pp. 14 – 15.

ولا يُضارّ أحدٌ منهم ، ولا يَسكُن بإيلياء معهم أحد من اليهود[1] ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزيةَ كما يعطي أهلُ المدائن ، وعليهم أن يُخرِجوا منها الرومَ واللصوتَ (اللصوص) ؛ فمن خَرَجَ منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ؛ ومن أقام منهم[2] فهو آمن ؛ وعليه مثلُ ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومَن أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلّي بِيَعَهم وصُلُبَهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومَن

---

(١) تقول دائرة المعارف اليهودية العامة إنه رغم أن « مصدراً مسيحياً يقول بأن أحد شروط معاهدة التسليم كان أن يمنع اليهود من دخول المدينة » إلا أن دائرة المعارف هذه تقول : « إن اليهود الذين كانوا ممنوعين من دخول أورشليم منذ سنة ١٣٥ م ، أبيح لهم ذلك فوراً عقب الفتح المحمدي . »
UJE, vol. 8, p. 358.

أقول : لعل التحريم المنصوص هنا كان يخص « سكنى اليهود » فحسب ، كما يتضح من الكلمة « لا يسكن » المستخدمة في الوثيقة ، بينما أجاز الخليفة الفاروق أن يدخل اليهود إلى المدينة لأداء صلواتهم .

(٢) أي من الروم ، كما هو واضح من العبارة التالية .

كان بهـــا من أهل الأرض قبل مقتل
فلان (هكذا) ، فمن شاء منهم قَعَدَ
وعليه مثلُ ما على أهل إيليـــاء من
الجزية ، ومَن شاء سار مع الروم ؛
ومَن شاء رجع إلى أهـله [1] فإنه لا
يؤخـــذ منهم شيء حتى يُحْصَدَ
حصادُهم ؛ وعلى ما في هـذا الكتاب
عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفـــاء
وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم
من الجزية . شهد على ذلك خـالد بن
الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدالرحمن
ابن عوف ، ومعـاوية بن أبي سفيان ،
وكتب وحضر سنة خمس عشرة » [2].

وبعد فتح القدس تقدم المسلمون ففتحوا الأجزاء البـاقية ، ابتداءً من قيصرية (قيسارية) وسامارية ونابلس واللد ويافـا

---

(١) أي أن الخليفة أعطى لمن يسير مع الروم حق العودة ثانية .

(٢) تاريخ الطبري ، الجزء الثالث ، ص ٦٠٩ .

وهـــذه الوثيقة الاسلامية الهامة لا تزال موجودة ومحفوظة في بطريركية الروم الارثوذكس (كنيسة القيامة) في القدس الشريف : عبد الله التل ، المصدر السابق، ص ١٣٠ . وكذلك : شفيق الرشيدات ، العدوان الصهيوني والقانون الدولي ، من مطبوعات الأمانة العامة لاتحاد المحامين العرب ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٩ .

وعسقلان حتى غزة . « فتحت إيلياء وأرضُها كلها على يديه (يدي عمر) ، ما خلا أجنادين فإنها فتحت على يدي عمرو ، وقيسارية على يدي معاوية . »[1]

وقد أعطى عمر بن الخطاب ، رضي الله تعالى عنه ، أهلَ اللد (لدّ) عهداً مماثلاً للذي أعطاه لبقية المدن الأخرى في فلسطين ما عدا إيلياء ، ونظراً لأهميته ننقله فيما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى أميرُ المؤمنين عبد الله : عمر ، أمير المؤمنين ، أهلَ لدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصُلُبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملّتهم : أنه لا تُسكَن كنائسُهم ولا تُهدَم ولا يُنتقص منها[2] ولا من حيّزها ولا من مِلَلِها[3] ، ولا من صُلُبهم ولا من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يُضارُّ أحدٌ منهم ،

---

(١) تاريخ الطبري ، الجزء الثالث ، ص ٦١٠ .

(٢) أي من عددها .

(٣) أي لا ينتقص من مختلف الملل المسيحية الموجودة حينذاك كالنساطرة واليعاقبة والأرثوذكس .

وعلى أهـــل لدٍّ أن **يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام**، وعليهم إن خرَجُوا مثـلُ ذلك الشرط، وإلى آخره.»[1] (انتهى)

ويقول مؤرخ بريطاني رسمي لفلسطين:

«اليهودُ، السماريون، المسيحيون، كلُّهم استقبلوا العربَ كمخلِّصيهم من اضطهـــاد اليونانيـين الأرثوذكس وجَوْرِهم.

«ولم يسيطر العرب على أية مدينـة في سوريا بقوة السلاح، فكلُّها قَبِلَتْ — عاجلاً أو آجلاً — الشروطَ السخية للرؤساء العرب.»[2]

وقسّم عمر فلسطين إلى قسمين إداريين، جعل عاصمة أحدهما «الرملة» واستعمل عليها علقمة بن حكيم، وجعل عاصمة القسم الثاني منها «إيلياء» وأقام عليها علقمة بن مجزّز عاملاً[3].

تقول دائرة المعارف الإسلامية إن العرب أعطوا لفلسطين

---

(١) تاريخ الطبري، الجزء الثالث، ص ٦٠٩.

(٢) Luke, p. 17.

(٣) تاريخ الطبري، الجزء الثالث، ص ٦١٠.

(إيلياء) اسم « جند فلسطين » أي « الولاية العسكرية الفلسطينية »، وأنهم لم يغيّروا من نظامها السابق الذي وجدوه، شأنهم في ذلك شأنهم في كل مكان آخر [١] .

لقد ضحّى المسلمون في سبيل الشام – بما فيه فلسطين – خلال حروبهم مع الروم بخمسة وعشرين ألفاً تقريباً من جنودهم، « مما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً والدماء الغزيرة التي أهدرت في فتحها عزيزة » [٢] .

الجهود الاسلامية لفتح الشام قبل عمر

وقبل أن ننتقل إلى قضية هامة – هي حقيقة الوجود اليهودي عند الفتح الإسلامي – ينبغي أن نتناول، بإيجاز، جهود المسلمين لفتح فلسطين قبل عمر الفاروق .

أرسل النبي ﷺ أول قوة إسلامية إلى بلاد الشام سنة ٨ هـ، بقيادة زيد بن حارثة، وقال إن زيداً سيقود المعركة، وإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة .

وكانت هذه القوة المجاهدة تتألف من ثلاثة آلاف مسلم . وتنبثق أهمية هذه السرية من حقيقة أنها كانت أول عمل حربي

---

(١) Encyclopaedia of Islam, vol. II, p. 107.

(٢) حسن ابراهيم حسن، « تاريخ الاسلام السياسي »، الجزء الأول، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة: ١٩٣٥، ص ٢٩٧ .

للمسلمين خارج الجزيرة العربية. وحين وصلت القوة الإسلامية إلى « معان » ، عَلِمَ المسلمون أن هرقل قد حشد في موآب بأرض البلقاء (شرقي الأردن) مائة ألف جندي من الروم ، وأنه قد انضمّ اليهم مثلُ ذلك العدد من القبائل العربية في المنطقة . فأقام المسلمون ليلتين في معان ، يفكّرون في الأمر ، واقترح بعضُهم أن يكتبوا إلى النبي ﷺ يطلبون منه مدداً ، وأوامر جديدة . وهنا قام الصحابي الجليل **عبد الله بن رواحة** في الناس قائلاً :

« يا قوم ! والله ، إنّ التي تكرهون للّتي خرجتم تطلبون : الشهادةَ ، وما نقاتلُ الناسَ بعدد ولا كثرةٍ ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا اللهُ به ، فانطلِقوا ، فإنما هي إحدى الحسنَيَيْن : إما ظهور وإما شهادة . » [1]

وتشجّع المسلمون ، وزحفوا نحو الشمال ، حتى قابلوا جموع الروم في موقعة « مؤتة » بالقرب من مدينة كرك . ودارت معركة غير متكافئة . فقاتل زيد بن حارثة ببسالة حاملاً راية الرسول الكريم حتى استشهد ، ثم تسلّم الرايةَ جعفر بن أبي طالب

---

(١) « سيرة ابن هشام » ، المجلد الرابع ، ص ١٧ .

فقـــاتل حتى قُطعت يمينه ، فحمل الراية بشماله حتى قُطعت ، فاحتضنها بعضديه حتى استشهد... ثم تسلّم الرايةَ خالد بن الوليد ، فنفّذ خطة حكيمة للانسحاب .

وحين وصل هؤلاء المجاهدون إلى المدينـــة المنورة قابلهم الرسول ﷺ ومعه جَمْعٌ من المسلمين . فأخذ المسلمون يحثون التراب قائلين : « يا فُرّار ، فررتم في سبيل الله ! » ، ولكن الرسول الكريم قال : « ليسوا بالفُرّار ، ولكنهم الكُرّار ، إن شاء الله » .

وموقعة « مؤتة » الحزينة هي التي استشهد فيهـا عديد من حفّاظ القرآن الكريم ، الأمر الذي أقلق النبي الكريم .

ومن الواضح أن الغرض الذي توخّاه النبي الكريم من إرسال هذه السرية ، في وقت مبكر ، هو تأمين حدود الدولة الإسلامية النـاشئة واكتشاف الأخطار الكامنة من وجود الروم ومحاولة التعرف على قوتهم وبأسهم .

وأمر الرسول الكريم بتجهيز قوة جديدة يقودها أسامة بن زيد لمواصلة المهمة التي سقط في سبيلها أبوه وشهداء مؤتة الأبرار .

وانتقـــل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى ، بينما لا يزال الجيش يستعد للخروج . فأمر الخليفة أبو بكر الصديق أسامةَ بأن يستمر في مهمته ، رغم معارضة بعض الصحابة . وفي هـذه المعركة اشتبك جيش أسامة مع القبـــائل العربية التي غدرت بالمسلمين في موقعة مؤتة ، وقام بتأديبهم ثم عاد إلى المدينة .

وأعدَّ أبو بكر جيشاً جديداً بعـــد أن انتهى من ضرب حركات الردة عقب وفاة النبي الكريم. وكان الجيش، في صورته الأولية ، يقدَّر عددُه بأربعة وعشرين ألفاً ، وكان يقود مختلف كتائبها الصحابة الكرام : أبو عبيدة بن الجرّاح ، ويزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وعمرو بن العاص .

وقد أوصى أبو بكر ، رضي الله تعالى عنه ، قوادَه بالوصية التالية :

« لا تخونوا ولا تغـدروا ولا تغلوا ولا تمثّلوا ، ولا تقتـلوا أطفالاً ولا شيخاً كبيراً ، ولا تقعروا نخلاً وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً (إلا لمأكل) وسوف تمرّون بأناس قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم ومـــا فرغوا أنفسَهم له . »[1]

وزحف الجيش الإسلامي نحو الشمال واشتبك مع الروم في معارك جانبية حتى وصل إلى حوران وأطراف دمشق . أمـــا

---

(١) ابن الأثير :
إن قلمي عاجز عن وصف هذه الوصية التي لا مثيل لهـا في قوانين الحرب لدى أية دولة وفي أي عصر ما عدا التاريخ الاسلامي الحافل بمثل هذه المواقف الخالدة .

الروم فقد تجمّعوا في وادي اليرموك . وعندما وصل خالد بن الوليد على رأس مدد للجيوش الاسلامية ، وجد القادةَ المسلمين متفرقين ، كلٌّ يقاتل الرومَ على حدة دون قيادة موحّدة . فجمع أمراءَ الجيوش وعرض عليهم فكرةَ توحيد الجيش تحت قيادة واحدة، ونزل الأمراء إلى رأي خالد وجعلوه قائدهم[1].

وبعد تقديم تضحية باهظة ، انتصر المسلمون في موقعة اليرموك ، بالرغم من أن الروم كانوا عشرة أمثال الجيوش الإسلامية . ثم اتجه المسلمون إلى دمشق وحاصروها وفتحوها ، دون استعمال القوة ، ثم اتجهوا نحو القدس ، على ما مرّ ذكره من قبل .

واهتمام المسلمين بالقدس فور كسرهم شوكة الروم وفتح حاضرتهم في المنطقة — دمشق — إنما كان بدافعٍ من العلاقة القلبية والدينية الوثيقة التي نمّاها الإسلامُ في نفوسهم بتقديس بيت المقدس الذي أُسْرِيَ اليه الرسول الكريم ، والذي كان الكعبة الأولى للمسلمين ، وهو الذي قال عنه الرسول في حديثه المشهور : « لا تُشَدُّ الرّحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى »[2] .

ومن الأحاديث التي وردت بشأن فلسطين ، ما رواه معاذ ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) وما أحوجنا إلى خالد جديد يوحد جيوش الاسلام في مواجهة الطغيان الالحادي والصهيوني و ...

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

« يا معاذ ! إن الله عز وجل سيفتح
عليكم الشامَ من بعدي من العريش
حتى الفرات ، رجالُهم ونساؤهم
وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة ،
فمن اختار منكم ساحلاً من سواحل
الشام أو بيت المقدس فهو في جهاد إلى
يوم القيامة . » (١)

هل عرب اليوم دخلوا مع الفتح الاسلامي ؟

إن هناك مغالطة عملية انهمك أغلب المؤرخين الصليبيين واليهود في ترويجها زوراً وبهتاناً ، خصوصاً فيما يتعلق ببلاد الهلال الخصيب – العراق وسوريا وفلسطين – وهي أن العرب الذين يسكنون هذه البلاد اليوم إنما هم أخلاف المسلمين الذين خرجوا من الجزيرة العربية عقب المدّ الإسلامي . ولقي هذا البهتان اهتماماً خاصاً لدى مؤرخي اليهود الذين أرادوا أن يُثبتوا أن عرب اليوم ليسوا إلا سكاناً جدداً حلّوا محلّ اليهود والروم في تلك البلاد . لكن المصادر الرسمية اليهودية نفسها تكذّب هذه المزاعم . تقول دائرة المعارف اليهودية العامة :

---

(١) « المقدسات الاسلامية في فلسطين » ، الهيئة العربية العليا لفلسطين، القاهرة ، ١٩٥٠ ، نقلاً عن عبدالله التل ، خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية ، ص ١٢٣ – ١٢٧ .

« فلسطين أصبحت بلاداً عربية ، ليس فقط بسبب الفتح المحمدي ، ولكن لأن العرب كانوا قد أتوا إلى البلاد مهاجرين منذ قرون مضت ، فمنهم البدو ومنهم جاليات المحاربين المجرّبين والتجار ، وكانت مسيحيتهم ، بالأصح ، هرطوقية (غير مستقيمة) ، غير عميقة بصورة كافية ، ولذلك استبدلوها بسهولة بالإسلام »[1] .

فالحقيقة الواضحة هي أن « سكان فلسطين غير اليهود » (إذا جاز لنا ذلك ، طبقاً للتعبير الإنجليزي الخبيث) هم العرب منذ أقدم عصور التاريخ ، كما أوضحنا ذلك بإسهاب ؛ وقد رأينا أن الأكثرية ليست عربية فحسب بل إن العرب قد حكموا البلادَ — كعرب — بالفعل قبل الإسلام بثمانية قرون ، ومنذ ذلك الوقت ظلوا عاملاً أساسياً في السياسات الفلسطينية في صورة الأنباط والإيدوميين والتدمريين . ولا شك أن قادمين جدداً من شبه الجزيرة وضعوا رحالهم في فلسطين بعد الفتح الإسلامي ، شأنهم في ذلك شأن أي شعب فاتح ، ولكن لا يمكن

---

(١) UJE, vol. 8. p. 358.
(بدون تعليق على التعليل اليهودي الهرطوقي لقبول عرب فلسطين الاسلام) .

إنكار أن الهجرة العربية إلى فلسطين كانت قبل ظهور الإسلام بكثير ، وإن ازدادت بعده [1] .

ويبلور جفريز هذه النقطة :

« لكن القادمين الجدد الذين تدفقوا على هذه البلاد آنذاك انصهروا مع سكانها الأقدمين لدرجـــة أن عرب اليوم في فلسطين لا يمثّلون مجردَ جنسٍ فاتح ، ولكنهم سلائل تلك الشعوب التي عاشت فيها قبل الإسرائيليين . إننـا نسميهم « عرباً » ولكنك لا بد وأن تجـد في خضمّ بحر جنسهم العظيم الذي يمتد من الإسكندرونة إلى مكة وما بعدها ، كثيراً من الأعراق . وإن جذورهم في هذه الأرض هي تلك الجذور التي نشأ منها التاريخ في حد ذاته .

« وما من شك أنهـا مفاجأة كبيرة بالنسبة للقارىء المتوسط أن يعلم أن العرب أسبق من اليهود في سورية ، وأن الجهل بهذه الحقيقة ــ الجهل الشائع

(١) Hyamson, op. cit, p. 15.

لدينا ـ هو في الواقع سند تعتمد عليه
الدعاية الصهيونية السياسية . » [1]

ويبلور المؤرخ الأمريكي د. تشارلز مثيوز هذه النقطة بوضوح أكثر ، كما يحدد وجوهَ التقديس اليهودي الحقيقي لفلسطين :

« إن الاحـــترام اليهودي لفلسطين
يَشْهَدُه الرواجُ القديم المتصل المتمثل
في دفن الأتقياء هناك ، واستعمال قليل
من تراب أرض إسرائيل لوضعــه مع
الميّت عند دفنه في الأقطار الأخرى ،
وفي شعيرة البكاء أمام حائط المبكى ،
وفي عرائض الشفـــاعة التي تلصق في
محرابٍ في مسجد إبراهيم في الخليل [2]،
وكذلك في كل الهالة التي تحيط بمغامرة
الصهيونية الحديثة . إن فلسطين ستبقى
على ما كانت عليه لهذه القرون الثلاثة

---

(١) جفريز ، « فلسطين اليكم الحقيقة » ، ص ٣٥ .

(٢) فهـذه العلاقة هي : « كالتي تربط المسلمين بمكة المكرمة والمدينـــة المنورة ، والمسيحيين ببيت لحم ، والهندوس ببنـــاراس وماتهورا ، والسيخ بمعبدهم الكبير في لاهور ، والشيعة بكربلاء ، وكأماكن أخرى كثيرة تتعلق بهـــا عواطف مختلف الأمم والملل ، لكنها لا تحاول الاستيلاء عليها ... » « التلمود – تاريخه وتعاليمه » للباحث – ص٧٠ – منشورات دار النفائس.

عشر الماضية : بلداً مقدّساً لثلاثة أديان
عظمى ، رغم الاستئناف الحالي للنزاع
حول إدارتها السياسية . وحيث أن
بعض الناس المخلصين يؤمنون أحياناً ،
ويعبّرون عن فكرة تقول إن «العرب
مجرد طفيليين في فلسطين » ، وأنه
ينبغي لهم أن يُفسحوا المجالَ لـ «عودة»
اليهود أصحاب الحق، الملاّك التاريخيين
لأرض التوراة ، فيمكن أن تقال
كلمة أخرى عن الأصول السلالية
Ethnology للبلاد. **إن الواقع البسيط
هو أن الشعب « العربي » في فلسطين
ليس سليل أولئك « القادمين الجدد »
الذين اقتحموا مع الفتح الاسلامي
العربي في القرن السابع . إن أغلبية
السكان المحليين ، سواء العرب
المسيحيين أو المسلمين ، هي من جنس
مختلط ؛ ترجع صلته بالأرض بعيداً**
إلى تاريخ قديم جداً . إن هناك نزعة

طبيعية لتبسيط التاريخ وذلك بالفكرة القائلة بأن جميع مسلمي الأقطار المفتوحة جاؤوا من الخارج وانتحلوا السلطة . وإنه لتصوُّرٌ لا يمكن لمعظم السكان المسلمين أن يفهموه وهو القول بأن أسلافهم كانوا من الجنس الفاتح . ولا شك في أن عدداً جسيماً من العرب الحقيقيين من عرب الجزيرة العربية قد استوطنوا في الأرض الجديدة ؛ وتوجد شهادات عن مثل هذا الاستيطان في التواريخ العامة والمحلية الضخمة للشعوب الإسلامية صاحبة العقلية التأريخية. ولكن الفاتحين والمستوطنين الذين جاؤوا وراء الانتصارات العسكرية والإدارة السياسية لم يكونوا إلا أقلية صغيرة بالمقارنة مع جماهير السكان التاريخيين المتصلين في الوجود . وقد تقبّلت الأكثريةُ اسمَ « العرب » تدريجياً مع قبول الجميع للدين الجديد واللغة العربية ... ولذلك فإن «عرب» فلسطين اليوم هم الشعب التاريخي للأرض ، وكانت البلاد دائماً بلادهم ،

ولكن فلسطين ، لا تزال وسوف
تبقى كذلك البلاد المقدسة للأديان
الثلاثة »[1] .

وليس هذا هو لبّ القضية ، بل إن **اليهود لم يكونوا موجودين كشعب أو قومية أو حتى بأعداد كبيرة حين فتح المسلمون فلسطينَ ، فقد كانوا قد غادروها بمحض اختيارهم** وقبل وقت طويل من سقوط القدس سنة ٧٠ م على يد تيتوس .

وقد عامل المسلمون : اليهودَ معاملة غاية في الكرم في كل العصور والأقطار ، واستمرت هذه المعاملة الكريمة حتى اليوم رغم العدوان الصهيوني على جزء غالٍ جداً من الوطن الإسلامي . وفي البلاد الإسلامية ، وفي كنف السلطات الإسلامية ، وجدَ اليهودُ فرصاً لم تُتَحْ لهم في أي يوم من تاريخهم ، ووجد نوابغُهم مَنْ يرعاهم في الأندلس والقاهرة وبغداد ودمشق والأستانة . والعصر الأندلسي في التاريخ اليهودي هو ما يسمونه بـ « **العصر الذهبي لليهودية الشرقية** »[2] .

وتاريخ التسامح الإسلامي مع اليهود والغدر اليهودي بالمسلمين

---

(١) Matthews, Dr. Charles D. , Palestine, the Mohammadan Holy Land, Yale Oriental Series, Researches, vol. XXIV, 1949, pp. XXIX – XXX.

(٢) JE, vol. 9, Article: Spain, Chapter: « The Golden Age of the Sephardic Jewry ».

طويل جداً ولا يمكن إحاطته إلا في سفر ضخم مستقل ، وهو ليس موضوعنا هنا . وقصارى القول أنه بعد الفتح الإسلامي ، « شمل حكم الخلفاء الذين جاؤوا بعــده عدداً من اليهود إذ توجد لدينـا تسجيلات بأنهم قد عاملوهم بحلم وتسامح . وكان اليهود يعيشون في المدن الرئيسية فلم يندثروا من تقلبات القرون التالية . بيــد أن الصليبيين ذبحوا عـــدداً كبيراً منهم حين فتحوا القدس [1] » .

فلسطين تحت حكم الخلفاء

لقد حكم المسلمون فلسطين في ضوء الأحكام الإسلامية السامية التي لا تفرق بين عبد وعبد ، فالكل عباد الله ، ولا تضطهد غير المسلمين حيث « **لا إكراه في الدين** »... «**لكم دينُكم ولِيَ دين**». وقد قال نبيُّ هــذه الأمة الكريم إنه سيكون خصم من يؤذي « ذمّياً». والحقوق التي يتمتع بها أهلُ الذمة في الإسلام لا يمكن أن نتصور أن الأقليات تمتعت بها في ظل أي دولة من الدول ، وفي أي زمن من الأزمان . وهذه هي الحقيقة مهما حاول أشباه المؤرخين المتعصبين العمي القلوب وَصْم التاريخ الإسلامي به .

وهذا مؤرخ صهيوني اشترك بضلع كبير في المؤامرة اليهودية البريطانية في تهويد فلسطين ، وهو ألبرت هيامسون، المسؤول عن دائرة الأراضي في حكومة الانتداب البريطانية ، يقول :

---

(١) جفريز ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .

« وتحت حكم عمر وخلفائه المباشرين ، تمتعت الأرضُ (أرض إسرائيل !) بصفة عـــامة بالأمن ، وتمتع سكانُها بدون تمييز ديني براحة كانت غريبـة عنها (الأرضِ والسكانِ) منذ قرون .

« وتحت حكم معاوية ، الذي حَكَمَ الأرضَ من ٦٣٩ م حتى ٦٨٠ م، وفي السنين الأخيرة من تلك المدة حَكَمَها كخليفة ، كانت فلسطين إحدى أحسن دول العالم حكماً ، واحتفظت بطابعها الهادىء لمدة قرنين آخرين [١] » .

ومن أهم أحداث فلسطين بعـــد الفتح الإسلامي تجميلُ عبد الملك مسجد الصخرة سنة **٦٩١** م أو « مسجد عمر » الذي كان قد بناه الخليفة الفاروق عند فتحه القدس . وهـــذا المسجد لا يزال حتى الآن « أحد أجمل الأبنية في العالم [٢] » . وتُجْمِع جميعُ المصادر اليهودية والمسيحية على أن هذا المسجد مبني على

---

(١) « ... Palestine was one of the best governed states of the world... » Hyamson, op. cit, p. 15.

(٢) ENCY BRIT, vol. 17, p 131.

أنقاض المعبد اليهودي القديم الذي كان يسمى بـ « معبد سليمان » Solomon's Temple [1] .

والأمر الذي اقتضى عبد الملك (٧٠٥ – ٦٨٥ م) تجميلَ هـذا المسجد هو التنافس السياسي العنيف الذي كان دائراً بين الأمويين وبين عبد الله بن الزبير الذي كان قد أقـام نفسه خليفةً في الحجاز . وكانت سيطرة ابن الزبير على المدينة المنورة ومكة المكرمة تدعّم مركزه ، بالإضافة إلى كونه أحد صحابة النبي ﷺ . فأقدم عبدُ الملك على تجميل هذا المسجد وأعاد بناءَ المسجـد الأقصى ، ليحوّل أنظارَ الكثيرين من المسلمين عن مقدسات الحجاز ، بل ومَنَعَ حَجَّ الكعبة لبضع سنين . وقـد اكتسبَتْ فلسطين قدسية أكثر فأكثر بسبب كونها هـدفاً للغزوات الخارجية فتعلقت بها قلوبُ المسلمين حتى بلغ ذلك أقصى مداه إبان الحملات الصليبية الحاقدة .

واستمرَّ الحكم الإسلامي على فلسطين في العهـد الأموي من

---

(١) يصبح هذا المعبد مخيفاً حين يترجم إلى العربية بـ « الهيكل » . ومن المفارقات العجيبة أن عبد الملك قد استوظف اليهود في الأعمال الهـامة لخدمة الحرم المقدس ، ولكن عمر الثاني (٧١٧ م – ٧٢٠ م) سحب هذه الخدمة من اليهود (!!) عن دائرة المعارف اليهودية العامة ، المجلد الثامن ، ص ٣٥٨.

ولعمري ؛ لا أستطيـع أن أتصور تسامحاً كهذا – بل (أكاد أقول) تهاوناً في حق أغلبية السكان – يمكن أن تتمتع به أقلية مـا في أي عصر من العصور !

دمشق (من ٦٦١ م حتى ٧٥٠ م) ثم من حاضرة العباسيين : بغداد ، منذ سنة **٧٥٠** م .

وفي سنة **٩٢٩** م اتجه كثير من المسلمين إلى القدس عقب ثورة القرامطة ، الذين دمّروا كنيسة القيامة التي كان اليهود قد استولوا عليها سنة ٨٣١ م [١] .

وفي سنة ١٠٧٢ م تعرّض أمن فلسطين للخطر لأول مرة بعد الفتح الإسلامي حين هاجم التركمانيون السلاجقة القادمون من خراسان : هذه البلاد . وقد احتلّ الجنرال الخوارزمي أتسيز Atsiz القدس ودمشق، ثم واصل مسيرته إلى القاهرة حيث كان هدفه الأساسي هو تحطيم الفاطميين الذين كانوا قد تربّعوا على عرش مصر منذ ٩٣٦ م ، ولكن المصريين تمكنوا من طرد الخوارزميين واستعادوا البلاد السورية .

واستغلّ الأباطرة البيزنطيون هذه الفترة القلقة فهاجموا فلسطين وسوريا أربع مرات على الأقل ، وقد وصل الإمبراطور جون زميسيس John Zimiscess حتى طبرية وعكا سنة ٩٧٥ م ، فكانت هذه الحملات تمهيداً للحملات الصليبية [٢] التي بدأت عقب تحرير الفاطميين فلسطين من السلاجقة بفترة قليلة .

وفي هذه الفترة الطويلة من الحكم الإسلامي المتسامح كان

---

(١) Hyamson, op. cit, p. 15.

(٢) Luke, p. 18.

اليهود قـد استوطنوا في القدس من جديد ، وأصبحت القدس مركز علم اليهود مرة أخرى [١] (وكانوا قد نقلوه إلى طبرية في عهد الرومان) . وكانت أعداد كبيرة من اليهود القرائيين قـد استوطنت في القدس منذ نهاية القرن الثامن الميلادي [٢] . وكان اليهود المقدسيون يعملون سكّاكي نقود ، وصبّاغين ، ودبّاغي جلود ، وصيارفة [٣] . ولكن في عهـد الحاكم بأمر الله عانى اليهودُ من تصرفاته تماماً كالمسلمين والمسيحيين، إلا أن عدد اليهود والمسيحيين كان قد ازداد بسبب العدل الذي ساد في ظل الحكم الإسلامي [٤] . وفي القرن الحادي عشر جاء بعض اليهود إلى فلسطين للاستيطان ، وكان بعضهم من ألمانيا . وكانت صفحة جديدة مريرة في تاريخ الإسلام ، وكذلك اليهود ، على وشك البدء في صورة الحمـلات الصليبية الحاقدة التي تستّرَتْ وراء الدين ، والمسيح منها براء .

---

(١) Hyamson, p. 17.

(٢) Ibid, p. 15.

(٣) Ibid, p. 16.

(٤) Ibid.

الفصل العاشر

الحمـــــلات الصليبية

١٠٩٩ – ١٣٦٩ م

«ولكن بالرغم من أن قادة الحملة الصليبية الأولى لم يتمكنوا من استغلال خلافات المحمـــــديين استغلالاً كاملاً كما كانوا يريدون ، فالحقيقة هي أن هـــــذه الخلافات (سبب) نجاح الصليبيين ، الى حد كبير جداً . إن انقسام أمراء سورية والخـــــلاف بين العباسيين والفاطميين هما اللذان مكّنا للصليبيين غزوَ المدينة المقدسة وتأسيس مملكة القـــــدس . وحين نَهَضَتْ قوةٌ في الموصل سنة ١١٣٠ تقريباً واستطاعت توحيد سوريا ، وحين مرة أخرى ، وتبعـــــاً لذلك ، وَحَّدَ صلاحُ الدين

سوريةَ مع مصر : قُضِيَ على قضية المسيحية اللاتينية في الشرق » .

« دائرة المعارف البريطانية » (١)

إن الاعتقاد الشائع يرى أن الحملات الصليبية هي الحملات التي أتت من أوروبا لغزو فلسطين ، أو بالأصح لغزو الشرق الإسلامي . ولكن الحقيقة هي أن الحملات الصليبية المنظمة قد بدأت – وبالإسم نفسه – قبل مجيئها إلى الشرق بأكثر من قرن (٢) ، وكانت موجّهة ضد الأندلس والممالك الإسلامية الأوروبية . ففي سنة ٩٧٠م كان المسيحيون قد بدأوا يحاربون المسلمين حرباً مسلحة ، نشيطة ، واحتلوا صقلية وأجزاء من أرمينية . واستمرت هذه الحملات الشعواء حتى انهارت الدولة الأموية في الأندلس في السنين الأولى من القرن الحادي عشر .

وكان الاسبان الذين يقاتلون المسلمين يتلقون مساعدة نشيطة من الأمراء الاوروبيين ومن الكنيسة . وقد بدأ رجالُ مدينة بيسا غزو سردينية بناءً على تحريض البابا بينيدكت الثامن . وقد بدأ النورمان يحاربون عربَ صقلية ابتداءً من

---

(١) ENCY BRIT, 11th Ed., 1911, Article: Crusade.

(٢) استمرت تلك الحملات ضد العالم الاسلامي ، تحت راية الصليب ، بعد انتهاء الوجود الصليبي المزعوم في الشرق الأدنى وفلسطين ، كما سيأتي .

١٠٦٠ إلى ١٠٩٠ م ، وكانوا يحاربون كأتباع Vassals للبابا . وكان البابا شريكاً أساسياً في حرب أتباعه المقدسة هـــذه . « إن مبادرة البابا التي تدين لهـــا الحملاتُ الصليبية في أساسها كانت من أول لحظة حقيقةً لافتة للنظر . »[1]

الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٩ م)

غزا الصليبيون طليطلة سنة ١٠٨٥ م ، وبعد عشر سنوات من ذلك أبحروا إلى فلسطين . وكان معظم المحاربين من الأصل الفرنجي . « وحيث أن إخراج المسلمين من اسبانيا كان يسير قُدُماً ، فقد تمَّ اجتذابهم أكثر إلى الميدان »[2] .

وكان عدد الصليبيين عند بدء مسيرتهم ٦٠٠ ألف ، ولكن لم يصل منهم إلى القدس سوى ٤٠٠ ألف ، وذلـــك بسبب سوء النظام والمجاعات والحروب الجانبية . وقـــد استولوا على القدس في يوليو (تموز) ١٠٩٩ بقيـــادة جودفري أوف بويلون Godfrey of Bouillon الذي أصبح حاكم القدس .

وقد ذبح الصليبيون سبعين ألفاً من مسلمي ويهود المدينة . وتقدموا إلى كنيسة القيـــامة « فوق الدماء البشرية » ، على حد تعبير المؤرخين (المسيحيين) أنفسهم .

---

(١) ENCY BRIT, (1960), vol. 6, p. 771.

(٢) Kirk, George E. , A Short History of the Middle East, London, 1964, p. 45.

إن السبب الحقيقي في هـــذه الحملة كان رغبة الأمراء الأوروبيين الإقطاعيين في التوسع وإيجـاد إقطاعيات جديدة وفتح أسواق للتجارة . يقول مؤرخ بريطاني رسمي لفلسطين : « ... لقـد كان منشّطو الصليبية تحركهم عواملُ عدة ، من دينيـة ورومانسية وعائلية (ملوكية) وتجارية . » ثم يقول بوضوح إن غرض الصليبيين كان « زرع إقطاعية غربية في أرض شرقية » [١] .

« وهكذا تأسست مملكة اللاتين في القدس ، بالتوفيق بين الحمـــاس الديني الحقيقي — وإن أُسيء توجيهُه — وبين جوع الأرض لدى النبلاء الشبان في أوروبا الإقطاعية ، وبين مساعي الطبقة التجارية الناشئة في داخل أوروبا ، وبين انتهازية عامة الناس الذين كانوا لا يزالون نصف برابرة » [٢] .

ويقول مؤرخ آخر :

«عقب الغزو السلجوقي لآسيا الصغرى ، كان الإمبراطور البيزنطي قـد وجّه نداءً إلى البـابا لاتحادٍ مسيحيٍّ ضد الإسلام ...

« وكانت القوانين الإقطاعية للوراثة

---

(١) Luke, p. 18.

(٢) ENCY BRIT, vol. 17, p. 131.

قد خلقت طبقة كثيرة العدد من أبناء وشبان لا يملكون الأرض، وكانوا — مع مغامرين آخرين — توّاقين إلى نحت إقطاعيات لهم في بلاد جديدة . وكانت المدن الإيطالية وغيرها من المدن التجارية الناشئة في البحر الأبيض مشتاقةً إلى تطوير تجارة كبيرة للمنتجات الكمالية في الشرق الأدنى وآسيا الصغرى الداخلية . وكل هذه العوامل العسكرية والمادية قد وجّهها النفوذُ القويُّ للكنيسة وأجراها وركّزها على ما أصبح الحملة الصليبية الأولى التي فاجأت الشرق سنة ١٠٩٩ »[١] .

وقد ساعدت الأحوالُ المحلية على نجاح هذه الحملة[٢] ، فقد كان مالك شاه قد مات سنة ١٠٩٢ وأصبحت سورية منذئذ مستقلة وكان خليفة مصر يهدد سوريا .

واتصفت الحملة بنوع غريب من البربرية والهمجية :

---

(١) Kirk, p. 45.

(٢) Hyamson, p. 19.

« استعد الصليبيون لواجبهم المقدس ، خلال مسيرتهم عبر أوروبا ، بأن ذبحوا اليهودَ في كل مدينة مرّوا بها ، ونهبوا وأحرقوا البيوتَ اليهودية . وكان طريقُهم عَلَماً على نهر من الدماء ، لَمَعَتْ فوقه الشعلُ الكالحة للبيوت المشتعلة . وكانت المظالم مريعة لدرجة أن الأمراء والأساقفة ذُهِلوا من الاحتجاجات . وفي البلاد المقدسة استأنف الصليبيون هذه الإجراءات . لقد كان جميع غير المسيحيين أعداء الله بالنسبة اليهم ، وكان يجب استئصالهم كلية . وحين فتَحَت القدسُ بابَها أعملوا السيفَ في كل مسلم ، رجل أو امرأة أو طفل ، من الذين تمكنوا من العثور عليهم ، لدرجة أن الصليبيين كان عليهم أن يخوضوا في الدماء حتى الركبة لكي يصلوا إلى كنيسة القيامة . . . أما اليهود فقد سيقوا إلى كنيسهم حيث حُرِقوا . » (١)

(١) = Hyamson, pp. 19 – 20, 22 – 23.

وبعـــد هذه المجازر ، سمّى جودفري نفسَه (عدا تنصيبه نفسه ملكاً) : « محامي كنيسة القيامة » Advocate of the Holy Sepulchre [1] .

وسرعان ما واجه الصليبيون حملة مصرية ضدهم ، إلا أنهم تمكنوا من صدّها في معركة عسقلان ، ولكن معظم الصليبيين تركوا عقب هذا « يهوديةَ » [2]. وبقي جودفري مع ألفي تابع له في القدس ، ومات سنة ١١٠٠ م ، وخلفه أخوه بالدوين .

وبعـــد استتباب الأمن سمح الصليبيون لليهود أن يزوروا ويستوطنوا فلسطين ، فعملوا في التجارة والطب [3] .

ويدّعي معظم مؤرخي الغرب أن الصليبيين أتوا إلى الشرق « لتحرير مسيحييها من الظلم الإسلامي !! » [4]، ولكن محاولة

= ويجب مقارنة هـــذه الواقعة مع دخول عمر إلى القدس ومع دخول صلاح الدين اليها ثم مع الدخول الصليبي الجديد إلى القدس في الربع الأول من القرن العشرين ، فقـــد أعلن حفيد قلب الأسد : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » ، وأعلن حفيد فيليب أغسطس حين دخل دمشق أمـــام قبر صلاح الدين : « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين » .

(١) Ibid, p. 20.
وقد وضع جودفري كتاب قوانين القدس Assizes of Jerusalem « والذي وضع فيه قوانين البلاد على أسس إقطاعية صارمة » . Luke, p. 19

(٢) Hyamson, p. 20.

(٣) Ibid, p. 21, 22, 23.

(٤) Ibid, p. 19.

الصليبيين المتكررة للاستيلاء على بلاد مختلفة من سورية ومصر وشمالي افريقيا تؤكد الطابع الاستعماري الإقطاعي لتلك الحملات.

الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ م)

وبسبب المحاولات المتكررة لفتح دمشق ووهنت قوة الصليبيين فجاءت الحملة الصليبية الثانية[١]، سنة ١١٤٧ بقيادة ملكي فرنسا وألمانيا.

وبسبب خيانة الفاطميين تمكن الصليبيون من السيطرة على الأرض المقدسة، بهدف جعلهم دولة حاجزة بينهم وبين السلاجقة.

وبدلاً من أن يواجهوا المقاومة: «أصبح الصليبيون عاملاً في الدسائس المهلكة والحروب الحقيرة بين الإمارات الإسلامية، ولم تكن لدى أطراف منها غضاضة أن تتحد مع الصليبيين ضد المسلمين أنفسهم»[٢]. وقد دفع أمراء سوريا الخراج للصليبيين لبعض الوقت، كما ظلت الخلافة العباسية الهزيلة في بغداد تتجاهل النداءات الموجهة اليها للمساعدة ضد الصليبيين.

وقد رحبت الأقليات المسيحية بالصليبيين «وأعطتهم مساعدة ثمينة»[٣].

---

(١) Luke, p. 20.

(٢) Kirk, p. 46.

(٣) Ibid.

إلا أن الأمير القوي « زنكي » ظلّ يصدّ تقدمَ الصليبيين نحو سوريا ، وحان منعطف خطير في حيـــاة مملكة اللاتين في القدس حين فتح الأتراك بقيادة نور الدين زنكي سنـة ١١٤٤ م مدينة إيديسا (الرها) Edessa الصليبية . « عندما قطع اللاتين علائقهم مع دمشق كانوا قد خطوا خطوة كبرى نحو حتفهم»[١]. ومرة أخرى « تعمــدتْ سيوفُ جنود الصليبيين بالدم اليهودي »[٢] . وبدأت سلسلة طويلة من الاضطهادات والطرد من البلدان الأوروبية ، ولعل أحد أسبابها كان اشتراك اليهود مع المسلمين في مقاومة الصليبيين .

وكان الصراع قــد اشتد بين الصليبيين والأتابك التركي في سوريا لفتح مصر حين ضعفت الدولة الفاطمية في مصر ؛ وقـد نجح نور الدين في إلحاق الهزيمة بالفرنج في عسقلان سنة ١١٦٤ ، ثم غزا مصر سنة ١١٦٩ ، وأقام نائبه شيركوه وزيرَ مصر ، ثم خلفه قـــاهر الفرنجة صلاح الدين سنة ١١٧١ ، وعندما مات نور الدين سنة ١١٧٤ جلس صلاح الدين على العرش .« وحتى الآن كانت الأحقاد بين نور الدين ونائبه في مصر قـد أخّرت الضربة القاضية لعدة سنين » ، رغم أن دويلة القدس كانت قد أصبحت بين فكّيّ كماشة القاهرة ودمشق[٣] .

---

(١) Hyamson, p. 23.

(٢) Ibid, p. 24.

(٣) Hyamson, p. 25.

واستطاع صلاح الدين أن يوحّد سورية ومصر تحت رايته سنة **١١٨٣**، وبذلك احتوى المملكة الصليبية احتواءً كاملاً ما عدا نقطة أمامية لها في العقبة على البحر الأحمر [١].

ولعل الذي جعل صلاحَ الدين يُسرِع إلى إنهاء الحكم الأتابكي الضعيف في دمشق هو أنه كان قد أصبح (عقب وفاة نور الدين) لعبة في أيدي الفرنجة الذين كانوا يساعدونه ضد القاهرة [٢].

وكان ملك القدس الصليبي آنذاك هو الشاب المجزوم بالدوين الرابع. وقد هزمه صلاحُ الدين في معركة بانياس واضطرّ الفرنجةُ إلى عقد صلح مع المسلمين. إلا أن الفرنجة سرعان ما نقضوا العهد[٣]، فزحف صلاحُ الدين لتسوية أموره.

---

(١) Kirk, pp. 46 – 47.

(٢) Hyamson, p. 25.

(٣) « عندما كان (الصليبيون) أقوياء بما يكفي لمحاربة العرب لم يكونوا يقدسون أية اتفاقية ولا يوفون بأية معاهدة » – السير ولتر بيسانت Besant، وهو يقول أيضاً: « إن أخلاقيات الصليبيين انحطت وأصبحوا يخالفون الملك والكنيسة، لدرجة أن سرت بينهم روح الكفر، ولم يكن هناك من يرتد عن دينه من المسلمين». وهو يضيف: « استقبل الاسلام المؤمنين به من بين المسيحيين، ولكنه لم يعط للمسيحية أحداً في مقابل من أخذهم ».
Quoted by Hyamson, pp. 28 – 29.
ويقول أحد المؤرخين العرب المسيحيين: « إن سنة دخول غير المسلمين الغزاة إلى الدين الاسلامي منتشرة جداً خلال التاريخ الطويل لأعدائه سواء في الفتح أو الهزيمة». والحقيقة التي يصح قولها هي أن كثيرين من الصليبيين =

وفي تلك الأثناء خلف بالدوين الخامس أخاه بالدوين الرابع الذي مات ، ودسَّ الفرنجـــةُ السم لبالدوين الخامس ، فتولى الحكم الملك غاي دى لوزيجنان Guy de Lusignan « المشاغب »[1].

وقد لقي صلاحُ الدين الفرنجةَ في موقعة حطين الخالدة في ٤ يوليه (تموز) **١١٨٧** . « وكان قاطع الطرق الصليبي رينالد دى شاتيلون Reynald de Chatillon قد أثار صلاحَ الدين للجهاد ، بعد أن قام بمحاولة عقيمة لاحتلال مكة والمدينـــة عن طريق البحر الأحمر »[2] . وفي حطين تمكن صلاح الدين من قصم ظهر المشاغبين الدخلاء ، « وكانت هذه أكبر كارثة لحقت بالصليبيين حتى الآن »[3] .

غزا صلاح الدين نابلس وقيصرية ويافا بدون مقـاومة ، وفي ٢٠ اوكتوبر (تشرين أول) **١١٨٧** فتح القدس بعد حصار دام أسبوعين ، « فأعطى المحاصرين شروطاً من السخاء لا مثيل لها تقريباً »[4] . وبعـد سنتين لم يبقى في أيدي الصليبيين سوى مرافيء أنطاكية وطرابلس وصور[5] .

= أنفسهم قد آمنوا بالعقيدة الاسلامية ولا تزال هناك طائفة تسمى « صليبي » تتكون من الأخلاف المباشرين للمحاربين المذكورين :

Bustani, Emile, March Arabesque, London, 1961, p. 19.

(١) ENCY BRIT, vol. 17, p. 131.

(٢) Kirk, p. 48; Hyamson, p. 28.

(٣) Luke, p. 20.

(٤) Ibid.

(٥) Kirk, op. cit.

« وأدّى سقوط القدس إلى هجرة يهودية تستحق الاعتبار ، إلى فلسطين ، لأنه حيثما حكم صلاحُ الدين ، كانت هنـــاك حرية لليهود ، وكذلك للأجناس والأديان الأخرى »[1]. وكان الحكيم اليهودي موسى بن ميمون طبيباً خاصاً لصلاح الدين ، « وقد كان لتدخل موسى بن ميمون (لدى صلاح الدين) أثراً كبيراً في فتح باب فلسطين مرة أخرى للمستوطنين اليهود . . . »[2]

« وتحت ظل بيت صلاح الدين عومل اليهود دائماً بالإنسانية ، وتلقوا كل حماية ممكنة »[3] .

الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ م)

انطلقت الدعوة مرة أخرى تحت إشراف البابا ، لإرسال حملة صليبية جديدة ، لاحتلال القـدس من جديد . واشترك في هذه الحملة كل من الإمبراطور فردريك الأول الألماني ، وفيليب أغسطس الفرنسي ، وريتشارد الإنجليزي . وكاد أمراء هـذه

---

(١) Hyamson, p. 28.

(٢) Hyamson, Albet M., Palestine in the Jewish History, p. 15; Bentwich, Palestine, p. 15.

(يراجع أيضاً كتاب الباحث ، « التلمود » ، ص ٩٦) .

وبلغ من تسامح صلاح الدين أن أعـــار موسى بن ميمون لريتشارد ملك الانجليز حين مرض هذا الأخير .

Hyamson, Palestine, the Rebirth.., p. 25.

(٣) Ibid, p. 34.

الحملة أن يقتتلوا ، فمضى كل منهم في سبيله وحيداً ، ولم يصل منهم أحـــد إلى فلسطين ما عدا ريتشارد « قلب الأسد » Richard, Coeur de Lion الذي فتح قلعةَ عكا التي كان جوى دي لوزيجنان يحاصرها منذ سنتين رغم أن صلاح الدين كان قـــد أخلى سبيلَـه (بعد أسره في معركة حطين) بوعد شرف on parole ألا يعود للقتال. وغزا ريتشارد بعضَ المدن الساحلية وحاول عبثاً تزويجَ أخته من شقيق صلاح الدين « لكي يتبوأ الإثنان عرشَ المملكة » [١] .

واحتل الصليبيون قبرص من جديد . وانتهت الحمـلة بعقد صلح مع صلاح الدين في ٢ سبتمبر (ايلول) ١١٩٢ م حصل الصليبيون بمقتضاه على شريط ساحلي ضيق بين صور ويافا، وعلى حق اللاتين في زيارة القدس،التي استمرت تحت الحكم الإسلامي. ورجع ريتشارد الى بلاده بعد هذا تاركاً وراءه ابنَ أخيه هنري أوف شامبان Henry of Champagne . وتوفي صلاح الدين — « أكثر أعداء الفرنجة إثارةً للرعب » [٢] — إلى رحمة الله في السنة التالية (١١٩٣ م) .

الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ م) وصليبية الأطفال

إن الحملة الصليبية الرابعة التي دامت فيما بين ١٢٠٢—١٢٠٤م،

---

(١) Hyamson, pp. 30 – 31.

(٢) Luke, p. 20.

كانت في حقيقة الأمر موجهة ضد الإمبراطورية الشرقية ، إلا أن بعض النبلاء التيوتونيين استطاعوا أن يصلوا الى بيروت وبعض المدن الساحلية . وقد أخفقوا في الوصول الى القدس .

وكان الملك العادل ، أخو صلاح الدين وخليفته ، يحكم الشام وفلسطين ومصر. « وكانت فلسطين الإسلامية قد أصبحت الآن جنة اللجوء لليهود المضطهدين في أوروبا » [١] . وقد استقبل السلطان سنة ١٢١١ م ثلاثمائة حاخام أوروبي زاروا فلسطين : « استقبالاً ودياً » [٢] .

وكان من أكبر المآسي أن جهّز المهووسون الدينيون جيشاً من الشبان والفتيات ، بلغ عدده خمسين ألفاً ، لمحاربة المسلمين ، فقد اعتقدوا أن هؤلاء الأبرياء سينجحون حيث أخفق آباؤهم ، وقد غرق معظمُهم في البحر الأبيض ، وقليل منهم وصلوا إلى فلسطين ، وأقلهم تمكن من العودة الى بلادهم [٣] .

الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٥ م)

أعلنها البابا إنّوسِنْت سنة ١٢١٥ م . وقد خرجت هذه الحملة الصليبية لاحتلال مصر ،وتمكنت من احتلال ميناء دمياط.

---

(١) Hyamson, p. 31.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid.

وتخاذل السلطان « الملك العادل » فقبل التنازل عن جزء من مملكة القدس ، وكذلك رضي بقبول بعض شروط الصليبيين رغبة في الحصول على السلام والأمن ، إلا أن القاصد الرسولي طالب المسلمين بالتعويضات، الأمر الذي رفضه السلطان وهاجم الصليبيين ودحرهم في دمياط . وبذلك انتهت الحملة الصليبية الخامسة التي أكدت بجلاء حقيقة الأهداف الكامنة وراء الغلاف الديني .

وكان الأيوبيون قبل هذه الحملة قد أعطوا امتياز التجارة في مصر منذ سنة ١٢٠٨ م للأوروبيين ، فأنشأوا أساسَ التجارة الشرقية المزدهرة لأوروبة حول البحر الأبيض [١] ، فازدهرت المدن التجارية الإيطالية الكبرى كالبندقية وجنوا وبيزا وغيرها [٢] . ولكن من الغريب ، أنه رغم هذه الامتيازات ، فقد اشتركت المدنُ البحرية الأوروبية التجارية– الآنفة الذكر– في الحملتين الصليبيتين الرابعة والخامسة « بسبب طموحها التجاري » [٣] ، ولا غرو فقد كانت تحلم بالسيطرة الكاملة على مقادير الشرق لنهبه وسلبه .

وهذا العامل التجاري كان يقضّ مضاجع الأوروبيين ، حتى قبل بدء الحملات ، بل واشترطت مدن معينة اشتراكَها على أن

---

(١) Kirk, p. 48.

(٢) Ibid.

(٣) Luke, p. 21.

تنال نوعاً من الامتيازات في البلاد المفتوحة : « في السنين الأولى نفسها، قد حصلوا (التجار الايطاليون) من الرؤساء الإقطاعيين للمملكة الصليبية على امتيازات هامة لتجارتهم كثمن لاشتراكهم في التجهيز المادي للحملات الصليبية : وهي الإعفاء من الضرائب ومن الجمارك ، والحكم الذاتي القانوني داخل أحيائهم الخاصة في موانىء الشرق الأدنى ، خاضعين لقناصلهم وحدهم » [١] .

الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٩ م)

لقد كان خلفاء صلاح الدين أقل ميلاً للحروب ، « وبذلك أثبتوا أنهم أكثر إراحةً للفرنجة » [٢] .

والإمبراطور الألماني فريدريك الثاني – المحروم كنسياً من قبل البابا جريجوري التاسع ، بسبب مماطلته في تجهيز الحملة – تمكن من أن يستغل هذا الوهنَ الإسلامي حين جاء إلى الشرق على رأس قوة كبيرة . وخرج الإمبراطور إلى فلسطين في الوقت الذي نادى فيه البابا الى حملة صليبية ضد مملكة فريدريك الأوروبية نفسها [٣] ! وكان فريدريك يعتقد أنــه صاحب الحق في تاج القدس لزواجه من إيزابيلا ، ووريثة ذلك التاج .

واستطاع فريدريك ، « باستغلال جماعـــة إسلامية ضد

(١) Kirk, p. 48.

(٢) ENCY BRIT, vol, 17, p. 131.

(٣) Hyamson, p. 32.

أخرى»[١] ، أن يحمل السلطان المصري يقبل شروطه ويتنازل له عن القدس والناصرة وبيت لحم مع شريط ساحلي ، لمدة عشر سنين ، هذا مع احتفاظ الصليبيين بالمدن الساحلية الأخرى التي كانت في أيديهم بالفعل [٢] .

وبسبب طرد البابا الإمبراطور فريدريك هذا من الكنيسة ، أحجم مسيحيو القدس عن حضور احتفاله بالفتح ، واضطر هو إلى أن يضع التاجَ على رأسه بيديه !

وكانت السنوات الخمس عشرة التالية هي السنوات النهائية في أجَل ِ الحكم الصليبي المضطرب على القدس ، ولم يكن ذلك ببطولة المسلمين المتخاذلين ، بل بسبب غزو خارجي ، غزو الخوارزميين المغول القادمين من آسيا الوسطى ، الذين كانوا قد اجتاحوا إيران سنة ١٢١٨ م .

وفي سنة **١٢٣٨** م استدعاهم حاكم دمشق لنصرته إلا أن الخوارزميين اتحدوا مع المصريين سنة **١٢٤٠** م ، وهاجموا شمالي سوريا ، واحتلوا القدس سنة ١٢٤٤ م وهدموا كنائسها وقتلوا سكانها . ثم زحفوا نحو غزة حيث اتحد معهم المصريون فأغاروا على سوريا التي انهزمت ، ولكن سرعان ما اختلف الحلفاءُ ، واضطر الخوارزميون الى ترك فلسطين تحت حكم مماليك مصر ، الذين استعادوا القدس .

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid. Kirk, p. 48; ENCY BRIT, op, cit.

الحملة الصليبية السابعة (١٢٣٩ م)

عند نهاية السنوات العشر للهدنة بين فريدريك والمسلمين جاءت الحملة الصليبية السابعة بقيادة ثيوبالد ، فنزلت في عكا في خريف سنة ١٢٣٩ م . وتكبدوا غالياً في محاولتهم الإستيلاء على عسقلان ، وأسر المسلمون منهم كثيرين ، وفداهم فيما بعد ريتشارد إيرل أوف كورنوال .

الحملة الصليبية الثامنة (١٢٤٨ م)

بعد سقوط القدس عقب معركة غزة وفتح بيبرس القدس ، بدأ البابا ينادي بحملة صليبية جديدة ، ذات شقين ، حملة صليبية ضد الكافر فريدريك الألماني في أوروبا ، وأخرى لفتح فلسطين . ولكن لويس التاسع الفرنسي فضّل الثانيةَ ، رغم أن البابا كان يفضّل الأولى [١] .

وعندما وصل لويس إلى قبرص وجّه قواته إلى مصر ، بدلاً من فلسطين ، حيث أسر ولم يُطلِق المصريون سراحَه إلا حين دفعَ فدية . ثم توجه إلى عكا ولكنه كان قد فَقَدَ كل قواته . فلم تُحدِث هذه الحملة أثراً في فلسطين .

إلا أن الصليبيين كشفوا أنفسهم أكثر فأكثر . . .

ومن الطريف أن نلاحظ أن الدور الذي تلعبه إسرائيل الآن

---

(١) Hyamson, p. 33.

في طاحونة الاستعمار الجديد، كان الصيلبيون الطفيليون يقومون به ذاته قبل سبعة قرون ، فقد « أدرك مديرو السياسة المسيحية ، في حقيقة الأمر ، فكرة الاتحاد مع هؤلاء الوحوش (المغول) ضد مسلمي الشرق الأدنى المتحضرين والمحافظين على المعاهدات » [١] . وقد بلغ الأمر لدرجة أن البابا إنّوسنْت الرابع وكذلك الملك لويس الفرنسي أرسلا مندوبين لهما إلى منغوليا للتباحث مع المغول، إلا أن ذلك لم يسفر عن نتيجة[٢].

ثم جاء غزو هولاكو، حفيد جنكيز خان، الذي دمّر بغداد وذبح أهاليها سنة **١٢٥٨** م ، وأنهى وجودَ الخلافة العباسية . واحتل دمشق سنة **١٢٦٠** م ، إلا أن القوات المصرية بقيادة بيبرس استطاعت إلحاق هزيمة فاصلة بهم في معركة غزة . وكان أحد الجنرالات المسيحيين يقود قوات المغول [٣] . وكانت المدن الفرنجية وحاميات الصليبيين في الشرق الأدنى قد ساعدت الغزو المغولي [٤] ، فأخذ بيبرس يحرّر مدينةً بعد أخرى ، فحرّر قيصرية ويافا والناصرة وأنطاكية وعسقلان .

ويلاحظ مؤرخ أوروبي معاصر أن ضياع القدس نهائياً من أيدي الصليبيين كان سببه « **الى حد كبير يرجع الى دسائس**

---

(١) Kirk, p. 50.

(٢) Ibid.

(٣) Hyamson, p. 34.

(٤) Kirk, p. 51.

الصليبيين ضد مصر »[١]. ولم تبق في أيـــدي الصليبيين إلا عكا .

واستولى بيبرس على الحكم بإنهاء الحكم الأيوبي ، وبذلك افتتح حكم المماليك الذي استمر لمائتين وخمسين سنة قادمة .

الحملة الصليبية التاسعة (١٢٧٠ م)

بدأت هذه الحملة الصليبية سنة ١٢٧٠ م تحت قيادة سانت لويس، ولكن ضد تونس !! وكان الملك الفرنسي يأمل في حمل « الباي » على قبول المسيحية ، ولكن هذا الصليبي مات في شمالي افريقيا دون تحقيق مشروعه الخطير ! وعقـــد أخوه شارل اتفاقية مع باي تونس ، وعاد أدراجه إلى فرنسا دون التفكير في أورشليم[٢] .

ولم تعجب هذه النتيجة صليبياً آخر في أقصى القارة ، فقاد إدوارد ، أمير ويلز ـ الملك إدوارد فيما بعد ـ جيشاً إلى عكا ، حيث وصل في أوائل سنة **١٢٧١** م . واستمرت حملته لأكثر من سنة ، لكنه رجع بخفي حنين[٣] . « ومع هـــذه الحملة أنهكت الحركة الصليبية نفسها »[٤] . إلا أن الصليبيين

---

(١) Ibid, p. 50.

(٢) Hyamson, p. 34.

(٣) Ibid.

(٤) Stevenson, The Crusades in the East, Cambridge, 1907, Quoted by Luke, p. 22.

استمروا في احتلال عكا . ومات بيبرس سنة ۱۲۷۷ م . وفي سنة ۱۲۹۱ م استطاع خليل (الملك الأشرف) ابن قلاوون أن يفتح عكا ، وبذلك أنهى الحكمَ الصليبي نهائياً ، فقد كانت طرابلس الشرق قد استسلمت سنة ۱۲۸۹ م . وبعد سقوط عكا انتقلت عاصمة « مملكة القدس اللاتينية » المزعومة الى قبرص .

والأسطورة الصليبية لم تنتهِ مع نهاية الحكم الصليبي على البلاد المقدسة ، بل ظل البابوات ينادون الأوروبيين لحملة جديدة ، دون جدوى !

وكانت آخر محاولة هي التي قام بها بيتر Peter ملك قبرص سنة ۱۳٥۹ م ، وكان بيتر قد طاف على ملوك أوروبا يستنهض هممهم للقتال ، ولكنه حين لم يجد استجابة منهم بدأ واجبَه المقدس بنفسه ! فأغار على الإسكندرية سنة ۱۳٦٥ م ونهبها ، وبعد سنتين نهب سواحل سوريا ، وقُتِلَ سنة ۱۳٦۹ م ، « وانتهت معه الأسطورةُ الصليبيةُ » [1] .

---

(۱) Hyamson, p. 35.

وقد استمر ملوك قبرص وملكاتها يحملون لقب « ملك القدس » حتى نهاية مملكتهم سنة ۱٤۸۹ ، وكانوا قد تلقوا تاج القدس في « فاماجوستا » باعتبارها أقرب مناطق قبرص الى القدس . ثم انتقل اللقب الى آل سافوى الذين كانوا ملوك إيطاليا حتى الحرب العالمية الثانية . وكانت عملات ملوك سردينيا تحمل العبارة التالية حتى سنة ۱۸٦۱ « ملك سردينيا وقبرص والقدس » . وكان الملوك الاسبان يحملون لقب «ملك القدس» حتى سنة ۱۹۳۱ بزعم وراثتهم=

ولكن الحقَّ هو أن الصليبية لم تنته إلا لتبدأ من جديد في صورة أخرى ، مستمرة حتى اليوم ، ففي القرن الرابع عشر بدأ البحارةُ البرتغاليون يستكشفون سواحل إفريقيا ، تحت إرشاد ملكهم « هنري الملاّح » (١٣٩٤ – ١٤٦٠ م) .

« كان الحافز العام لهنري واضحاً وهو أن يواصل الحملاتِ الصليبية في محاولة ضرب جناح دار الإسلام من كلتي الوجهتين : الإستراتيجية والتجارية ، وأن يصرف تجارةَ الذهب ومنتجات غرب إفريقية الأخرى عن أيدي المسلمين ، وأن يُنشىء اتصالاتٍ مع الاثيوبيين وأن يُغيروا معاً على المسلمين من ناحية الجنوب ، ولعله كان قد وضع في آخر حياته مشروعاً يقضي بأن تفوز البرتغال بتجارة الهند التي كانت حتى ذلك الوقت المصدر الرئيسي لثروة العالم الإسلامي » [(١)] .

وحين تمكن فاسكو دي غاما سنة ١٤٩٨ م من الوصول الى جنوب الهند بمساعدة أحد الملاحين الهنود ، أصبح ملك البرتغال يطلق على نفسه اللقب الآتي :

= للأنجويين The Angevins (وهم أسرة مالكة ينتمي اليها ثمانية من الملوك الانجليز) . وكان أباطرة النمسا يحملون اللقب حتى سنة ١٩١٨ باعتبارهم ورثة « ماري » الأنطاكية .

وقد نشأت من الحملات الصليبية حركات عسكرية من أهمها :

Templars, Hospitallers. the Teutonic Knights etc.

See: Luke, pp. 23 – 24.

(١) Kirk, pp. 63 – 64.

« سيّدُ فتوحٍ وملاحةٍ وتجارةِ الحبشة والجزيرة العربية وإيران والهند » [١] .

وشعر المصريون بأخطار هذا التطويق الصليبي ، وأرسلوا أسطولهم لمواجهة البرتغاليين في الهند ، إلا أن الأسطول المصري تحطم ،وكان ذلك نقطة خطيرة وانعطافة كبرى في تاريخ الإسلام الحديث ، المليء بالمآسي .

وكان البرتغاليون يشعرون بأهمية مصر في أية معركة ،ففكر أميرالهم ألبوكيرك Albuquerque في تحويل مجرى النيل الى البحرِ الأحمر ، لحرمان المصريين من المياه التي لا بد لهم منها لاستمرار الحياة [٢] .

وقد استمرت هذه الروح الصليبية الحاقدة حية في أعماق كثيرين من سكان الجزء الغربي من الكرة الأرضية وما يهمنا هو إلقاء بعض الضوء على نهاية تلك الحملات الشعواء الوحشية التي أخذت العالم الاسلامي على غرة في بداية القرون الوسطى، حتى لقد قيل عن تاريخ الحملات الصليبية إنه « أحد أكثر التواريخ المسطورة إيلاماً » [٣] . ولا شك في ذلك ، فقد استغل رجالُ

---

(١) « Lord of the Conquest, Navigation and Commerce of Ethiopia, Arabia, Persia and India ». Ibid, p. 64.

(٢) Ibid, pp. 64 – 65.

(٣) Hyamson, p. 19.

الكنيسة سلطاتِهم أبشع استغلال وأبلوا المؤمنين بهم بلاءً تعيساً وجعلوا الشرق يقاسي أبشع أنواع الغارات لحقبة طويلة .

ويبدو الطابع الاستعماري الإقطاعي جلياً من دراسة وقائع واتجاهات الحملات الصليبية .

لقد واجه الصليبيون مقاومةً شديدة من المسلمين رغم تخاذل وخيانة بعض ملوكهم ، وكان من نتيجة تلك المقاومة أن الصليبيين لم يصلوا أبداً إلى عمق أكثر من خمسين ميلاً من ساحل فلسطين [1] .

« لقد كان الصليبيون بصفة عامة مغامرين أجلافاً غير مهذبين » [2] ..

« إن سلوك الصليبيين لا يُضفي أي مفخرة على الحضارة الغربية ، ويجب أن نعترف بصراحة أن البارونات والأمراء الفرنجة كان معظمهم برابرة زُبّاً [3] ، مع تكريس قليل من جانب الكنيسة أو الحضارة القديمة للبحر الأبيض » [4] .

---

(١) Kirk. pp. 37. 48.

(٢) Ibid, p. 37.

(٣) الأزب : كث الشعر .

(٤) Ibid, p. 304.

ويقول مؤرخ آخر أن « مملكة القدس كانت معروفة أساساً لبربريتها المُهْلِكة في دورها »[1] ...

ويرى جورج كيرك أن الحملات الصليبية فتحت نوافذ عقول الأوروبيين[2] لما رأوه في الشرق الأوسط « الذي كان مستوى حضارته لا يزال أرفع بكثير من حضارة الغرب »، إلا أن تأثير الصليبيين أنفسهم على تاريخ الشرق الأوسط كان محدوداً جداً، « وكان التأثير النفسي لغزوهم على العالم الإسلامي أقل بكثير مما يمكن تصوره »[3].

---

(١) Marlowe, Rebellion in Palestine, p. 18.

(٢) يقول المفكر الهندي وحيد الدين خان عن اندحار أوروبا في الحروب الصليبية :

« ... وبعد الفشل الذريع قررت أوروبا تغيير استراتيجيتها، وأخذت تستعد لحملة جديدة على عالم الاسلام. »

« وكانت خلاصة التفكير الجديد أن يتعلم الغرب علوم المسلمين ثم يهزمهم بأسلحتهم وفنونهم ذاتها. »

« وسمى الأوروبيون الحرب الجديدة بـ « الصليبية الروحية » Spiritual Crusade وكانت غاية الصليبية الروحية أن يتعلم الأوروبيون علوم المسلمين فيشوهوا العقائد الاسلامية وتاريخ الاسلام ... »

من مقال « الغرب .. حيث توقف المسلمون » بجريدة الأخبار (القاهرة)، عدد ١٨ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٧٢ .

(٣) Kirk, pp. 45 – 46.

ويقول ألبرت حوراني :

«الصليبيون... تركوا وراءهم ذكريات لم تمتْ حتى الآن ... وفي زمننا هذا قد تمّ احياء ذكرى الصليبيين في العقل العربي العام بما قد حدث في فلسطين» [١] .

---

(٢) Albert Hourani, The Decline of the West in the Middle East, article in International Affairs, 29, 1953, quoted by Kirk, pp. 302 – 303.

المـــراجع

أ – المراجع العربية :

– ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، الجزء ٤ .

– أحمد طربين ، د. ، **قضية فلسطين – ١٨٩٧–١٩٥٨** ، محاضرات في التاريخ السياسي ، الجزء الأول .

– التوراة (الترجمتان العربية والإنجليزية) .

– جفريز ، ج م ن ، **فلسطين : اليكم الحقيقة** ، ترجمة خليل الحاج ، مراجعة د. محمد أنيس ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٧١ ، الجزء ١ .

– حتي ، د. فيليب : **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين** ، ترجمة د. جورج حداد وعبد الحكيم رافق ، بيروت ١٩٥٨ ، الجزء الأول .

– حسن ابراهيم ، د. حسن ، **تاريخ الاسلام السياسي** ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٣٥ ، الجزء ١ .

- شفيق الرشيدات، **العدوان الصهيوني والقانون الدولي**، الأمانة العامة لاتحاد المحامين العرب، القاهرة ١٩٦٨ .
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠، الجزءان : ١ — ٣ .
- ظفر الإسلام خـان ، **التلمود ، تاريخه وتعاليمه** ، دار النفائس ، بيروت ١٩٧٢ .
- عبد الله التل ، **خطر اليهودية العـالمية على الاسلام والمسيحية** ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٤ .
- غوستاف لوبون ، **اليهود في تاريخ الحضارات الأولى** ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧٠ .
- نقولا الدر، **هكذا ضاعت وهكذا تعود**، بيروت ١٩٦٥.

ب — المراجع الأجنبية :

- Buckmaster, Edith, **Palestine & Pamela,** a chat with the unlearned on the Holy Land, Cambridge, W. Heffer & Sons Ltd, 1925.
- Bustani, Emile, **March Arabesque,** London, 1961.
- Bentwich, Herbert, **Palestine of the Jews, Past, Present and Future,** Kegan & Paul, London, 1919.

- ...., **Mandate Memoirs,** London, 1964.
- ENCY BRIT,.............. **Encyclopaedia Britanica,** 1960 Ed, USA.
- **Encyclopaedia of Islam,** Ed Houtsma & others, London-Leyden, 1936, Vols I, II, III.
- Gibbon, Edward, **The History of the Decline and Fall of the Roman Empire,** vol 5.
- Hyamson, Albert, M., **Palestine, the Rebirth of an Ancient Nation,** Sidgwick Jackson & Co, London, 1917
- ...., **Palestine, in the Jewish History**, London.
- JE.............. **Jewish Encyclopaedio,** New York, 1905.
- Kirk, George E., **A Short History of the Middle East,** Methuen & Co, London, 1964.
- Luke, Sir Henry, & Edward Keith-Roach, **Handbook of Palestine & Trans-Jordan,** 3rd Ed, Macmillan & Co Ltd, London, 1934.
- Matthew, Dr Charles D., **Palestine - Mohammadan Holy Land,** Yale Oriental Series, Researches, vol XXIV, 1949.
- Macalister, Stewart, **The Philistines, their history and civilization,** London, 1914.

- Marlowe, John, **Rebellion in Palestine,** Cresset Press, London, 1946.
- Polano , H. , **The Talmud ,** London, Frederick Warne & Co, N.D.
- UJE............. **Universal Jewish Encyclopaedia,** New York, 1948.
- Wismar,Adolph L. , **A Study of Tolerance as practised by Mohammad and His immediate successors,** New York, 1927.

محتوى الكتاب

الفصل الخامس :

الفصل السادس :

الفصل السابع :

الفصل الثامن :

الفصل التاسع :

صدر عن « دار النفائس »

التلمود تاريخه وتعاليمه
ظفر الاسلام خان

التوراة تاريخها وغاياتها
سهيل ديب

دم لفطير صهيون
نجيب الكيلاني

لورنس العرب على خطى هرتزل
زهدي الفاتح

الصراع السوفياتي الأميركي في الشرق الأوسط
اعداد ج. س. هورويتز

طبع في دار النفائس ت ٢٥٨٧٢٨ - ص.ب ١١٦٣٤٧ - بيروت

لم يكن اليهود في تاريخ فلسطين الحافل إلا لاجئين أو عابري سبيل أو مغتصبين لجزء من الأرض التي صنعت التاريخ .

وهـــذا الكتاب بحث تاريخي أمين يبيّن أنْ ليس لليهود «ساميين وغير ساميين» أي حق في فلسطين، وأن الصهيونيين الذين قَدِموا إلى فلسطين واغتصبوا أرض العرب ليسوا ساميين أصلاً ، ولا توجد أية رابطة نسَبِيَّة تربطهم بإسرائيل « يعقوب » الذي يطلقون اسمَه على دولتهم .

